

بدر العبري

اليهود والقضية الفلسطينية

الفهرس

- 4.....مصطلح اليهودية
- 5.....اليهود وبنو إسرائيل
- 7.....اليهود والسامريون
- 9.....الهوية اليهودية
- 10.....الفرق اليهودية المبكرة
- 11.....اليهود العقلانيون والعلمانيون
- 12.....العلموية اليهودية المعاصرة
- 18.....الثنائية في الاجتماع اليهودي
- 19.....اليهود والتوراة والتلمود
- 20.....اليهود ومعتقد ما بعد الحياة
- Error! Bookmark not defined.**.....الصهيونية وجبل صهيون
- 22.....اليهودية والسامية
- 23.....السامية والهولوكوست
- 24.....من يعادي السامية اليوم؟
- 25.....اليهود وموقعهم في التاريخ المسيحي والإسلامي
- 26.....اليهود ومسألة الدولة
- 27.....اليهود ومسألة إسرائيل الكبرى
- 29.....الدولة في نظريتيودور هرتزل
- 31.....القضية الفلسطينية والمقدس
- 33.....لماذا انتفض الإنسان الغربي مع الفلسطيني؟
- 34.....شيرين أبو عاقلة وعناق الهلال بالصليب
- 38.....الأديان وقتل الآخر

- 40 هل الله فعلا يأمر بالحروب وقتل الإنسان؟
- 43 عندما يُقتل الجمال.....
- 51 تفكك البيت الفلسطيني.....
- 52 التّطبيع والصّح والهدنة والسّلام.....
- 54 هل كان العرب صادقين مع إسرائيل؟.....
- 56 القضية الفلسطينية بين الحكومات العربيّة وشعوبها.....

مصطلح اليهودية

اليهودية كمصطلح ظهر في عهد الدولة الفارسية، ولم يكن المصطلح معروفا في عهد النبي موسى – عليه السلام -، فظهر بعد ألف عام من وفاته، فمملكة إسرائيل انقسمت إلى المملكة الشمالية واسمها مملكة إسرائيل أو السامرة وعاصمتها شكيم [نابلس حاليا]، واحتلها الآشوريون بعد مائتين سنة من سقوط المملكة الجنوبية، والمملكة الجنوبية واسمها يهوذا وعاصمتها اورشليم، واحتلها البابليون، وتمّ سبيهم إلى بابل، وفي عهد الدولة الفارسية في عهد كورش الكبير (ت: 529 ق م) أرجعهم إلى بلدهم، وهنا ظهر مصطلح اليهودية¹.

اليهودية تشكل متأخر جدًا حتى على مستوى النص (التناخ والتلمود)، فيرى مثلا إسرائيل شاحك ونورتون ميزفينسي في كتاب "الأصولية اليهودية في إسرائيل" أنه "لم تكن اليهودية كما نعرفها الآن موجودة خلال حقبة الكتاب المقدس"، على أنّهما يرون أنّ الكتاب المقدس أي العهد القديم كما عند المسيحيين كتب في العهد البابلي بعد السبي وحتى القرن الخامس قبل الميلاد، "واليهودية على الأقل من حيث خصائصها الجوهرية لم تكن موجودة في تلك الفترة الزمنية"².

¹ اختلف في سبب تسمية اليهودية، ف قيل من التوبة والرجوع كما في قوله تعالى: {وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف/156]، وقيل نسبة إلى يهوذا من أبناء يعقوب، ومن الاسباط الاثني عشر، وقيل نسبة إلى مملكة يهوذا، ولعل الثالث أرجح، كغالب النسبة إلى الأماكن، فقلبت الدال دالا، والله أعلم.

اليهود وبنو إسرائيل

اليهودية ظهرت من جنس بني إسرائيل، أي من أبناء يعقوب، لكن لا يعني أنّ جميع اليهود من بني إسرائيل، فالعديد دخل في اليهودية من الأجناس الأخرى، ومع أنّ اليهود لا يبلغون دينهم؛ لكنهم لا يرفضون من أراد اعتناق اليهودية كدين له، فمثلاً يهود روسيا ويهود اليمن، فعن طريق الحمض النووي DNA، وجد فئة من اليهود الروس يتوافق حمضها مع الحمض النووي لليمنيين، وعند فئة لا يتوافق³.

يرى يعقوب ملكين في كتابه "علمنة اليهودية" أنّه "يجب التمييز بين القومية اليهودية [الإسرائيليون] والديانة اليهودية التي هي مجموعة من فرائض الشريعة، وقد فرّق الإسرائيليون في عصر العهد القديم بين شعبهم وديانتهم"⁴.

اليهودية وإن ربطت ذاتها بعرق بني إسرائيل ابتداءً إلا أنّها لم تمنع الأعراق الأخرى من الدخول في اليهودية دون تبشير منهم، فهم مرّوا بثلاث تحولات عرقية، التحوّل الأول تحول من أبناء يعقوب أي الأسباط الاثني عشر إلى الانحسار في يهوذا وبنيامين ولاوي، أي ما يسمى بالأسباط العشرة المفقودة، خصوصاً بعد الانقسام بين مملكة إسرائيل الشمالية واسمها مملكة إسرائيل أو السامرة وعاصمتها شكيم [نابلس حالياً]، وهذه ارتبطت بالسامريين لاحقاً، وبين المملكة الجنوبية واسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم وهذه ارتبطت بالسبي البابلي، وفيها ظهر مصطلح اليهودية، ثم نتيجة دخول عرقيّات عديدة فيها، خصوصاً بعد سقوطهم في عهد الرومان سنة 70م، تشرذموا في عرقيّات متباينة مثل الأشكناز والسفارديم والمزراحييم والفلانسا وبني منشيه، فضلاً عن اليهود العرب، واليهود الفرس، فاليهودية اليوم يصعب جعلها ديانة عرقية، فقد ذابت في أعراق متباينة، لهذا لا يمكن ربطها ببني إسرائيل.

أجد القرآن دقيقاً جداً في استخدام لفظتي بني إسرائيل واليهود، فقل ما يستخدم لفظة اليهود، وفي سياق الحديث بعد السَّبِيّ، جميعها متأخرة مثلاً في آية عزير أو عزرا وهو ظهر بعد السَّبِيّ، وفئة من اليهود ادّعت أنّه ابن الله، وكذا صراعهم مع النّصارى وهو متأخر، وقضيّة يد الله مغلوطة والولاء والبراء أحداث في وإن كانت لها سياق تاريخي قديم، إلا أنّها جدليّة متأخرة، أمّا في الجانب التّاريخي كما في سورة البقرة استخدم القرآن لفظة بني إسرائيل.

اليهود والسامريون

اليهود ينفون أن يكون السامريون من بني إسرائيل، والسامريون يرون أنهم الوريث الحقيقي لبني إسرائيل، واليهود خليط من أجناس مختلفة بعد السبي البابلي.

بالنسبة إلى إبراهيم وحفيده يعقوب - عليهما السلام -، إذ يعتبر السامريون واليهود أنهم الذرية المتسلسلة من إسرائيل (يعقوب) ابن إسحاق ابن إبراهيم، ونسبتهم إلى إبراهيم نسبة توحيد ونسب، فهم إسرائيليون نسبة إلى حفيده يعقوب، كما أنهم موحدون لأن إبراهيم جاء بالتوحيد، وظهر منهم أنبياء أعظمهم النبي موسى - عليه السلام -، فهم موسويون من حيث الشريعة.

ويرون أنهم يرجعون إلى سبطي إفرايم ومنسى أبناء النبي يوسف، وأما كهنتهم فيرجعون إلى سبط لاوي، وهؤلاء عددهم لا يتجاوز تسعمائة نسمة، ومهددون بالانقراض العرقي، لهذا اضطروا إلى إباحة شيء من الزواج من غيرهم من بعض الأعراق شريطة أن تدخل في السامرية، فهم في الأصل ديانة منغلقة غير تبشيرية لا ترحب بالانضمام إليها، وتربط الدين بالعرق.

ولا يرون أنفسهم يهودا، ولا يؤمنون بالتناخ والشروحات، فقط يؤمنون بالأسفار الخمسة، ولهم توراتهم الخاصة المسماة "التوراة السامرية"، ويرونها أقدم بكثير من التوراة اليهودية، وأن الثانية أصابها التحريف، وكما يرى كاهنهم الحالي حسني واصف أن الفروقات بينهما تصل إلى سبعة آلاف كلمة أو آية، وهم أقرب إلى الإسلام في اللاهوت والشرائع بصورة تتجاوز ثمانين بالمائة، ولا يهتمون بمسألة الدولة، وما جاء من آيات في العهد القديم هذه مرتبطة بالمخلص الذي يأتي وقيم العدل، وليس بمفهوم الدولة تاريخيا، ولا بمفهوم الدولة القطرية المعاصرة، كما لا يرفضون وجود أنبياء في أمم أخرى كالنبي محمد، إلا أن ديانتهم مرتبطة بعرق بني إسرائيل.

يرى الحاخام رابي دايفيد أنّه "بعد ألف عام من وفاته – أي موسى -، انقسمت مملكة إسرائيل إلى المملكة الشماليّة واسمها مملكة إسرائيل أو السّامرة وعاصمتها شكيم [نابلس حالياً]، واحتلها الآشوريون بعد مائتين سنة من سقوط المملكة الجنوبيّة، والمملكة الجنوبيّة واسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم، واحتلها البابليون، وتمّ سبيهم إلى بابل، وفي عهد الدّولة الفارسيّة في عهد كورش الكبير (ت: 529 ق م) أرجعهم إلى بلدهم، وهنا ظهر مصطلح اليهوديّة"⁵، وبهذا سينقسم الإسرائيليّون من حيث الشّريعة الموسويّة الواحدة إلى ديانتين منفصلتين، ظهرتا كمصطلح متأخر جدّا بعد ألف سنة تقريبا، الدّيانة السّامريّة، والدّيانة اليهوديّة.

الهوية اليهودية

اليهود طبيعياً كأي أمة تتأثر بغيرها، كتأثرهم بالهلنستية الرومانية، والغنوصية الفارسية، وتأثر القرآنيين بالثقافة العربية، وتأثرهم حالياً بالحضارة الغربية، "مثلاً قبل مائتين سنة من ميلاد المسيح تحدّث اليهود بالرومانية، فطبيعي التأثير بالثقافة الهلنستية، وفي الأندلس تأثروا بالثقافة الإسلامية، واليوم بالثقافة المسيحية، فلا يمكن أن نكون موسويين أي بمعنى أن نكون كموسى بالكامل في عصره"⁶.

بتكوّن اليهودية ظهرت هوية جديدة في القومية الإسرائيلية تمايزت عن غيرها بسبب النص، من التناخ وحتى التلمود بقسميه المشناة والجمارا، وتحول الاجتهاد التاريخي إلى نص آخر حاول اليهود التنصل منه ابتداءً من الصّدوقيين الذين رفضوا ما عدا الأسفار الخمسة قبل ميلاد المسيح، والقرآنيين الذين ظهروا على يد عنان بن داود (ت: 795م) في الدولة العباسية، ولهم وجود حتى اليوم، وهذا خلافاً للفرسيين قديماً، الذين آمنوا بجميع النصوص الدينية، ومنهم الربانيون اليوم، إلا أنّ اليهودية الأرثوذكسية أو الربانية زاحمتها اليوم اليهودية العقلانية أو الحدائثية، وظهرت في عصر الأنوار، ورفضوا الأخذ بحرفية النصوص المقدسة بما فيها الأسفار الخمسة (التوراة)، بجانب العلمنة اليهودية القائلة بأنّ الديانة برمتها ثقافة وليست لها قداسة لاهوتية، وفريق وسط وهم الإصلاحيون المغلّبون للقراءة الظرفية والتاريخية للنص الديني اليهودي.

الفرق اليهودية المبكرة

بعد دمار الهيكل (586 ق م) انقسم اليهود إلى الصّدوقيين والفريسيين والأسينيين⁷، بيد أنّ الصّدوقيين والأسينيين انقضوا، وما بقي اليوم فمن الفريسيين، وفي القرن الثامن الميلاديّ ظهرت فرقتان كبيرتان في اليهودية: فرقة القرّائين⁸، وفرقة الرّبانيين، وكلا الفرقتين من الفريسيين، وفرقة القرّائين كانت كبيرة لكنّها اندثرت شيئاً فشيئاً حتى لم يتبق منها اليوم سوى عشرة آلاف، وأغلبهم في إسرائيل، وأمّا الرّبانيّون فيسمون اليوم باليهود الأرثوذكس، أو باليهود الكلاسيكيين، وكذلك يسمون باليهود الحاخامائيين، وقبل خمسمائة سنة لا يعرف شيء اسمه اليهود الأرثوذكس، وظهرت من الرّبانيين فرقة الحاسيديم [في القرن السّابع عشر الميلاديّ]، وهي فرقة عرفانيّة تميل أكثر إلى الاستمتاع بهذه الحياة بالغناء والرّقص، ويستخدمون ذلك في ذكر الله [مثل الصّوفيّة معنا تقريبا]، وهؤلاء بسبب رهبتهم، والتصاقهم بالشّخص انقسموا إلى طرق وأقسام مختلفة⁹.

⁷ الصّدوقيون أتباع صدوق وذريته الذين كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان، ويؤمنون بالكتب القديمة أي الأسفار الخمسة، ويرفضون ما عداها، وهم حرفيون في مسائل الدّين، يختلطون مع الأجنبي، ولا يؤمنون بالبعث ولا بالجنّة ولا بالنّار.

الفريسيون من الفرز أي المتميزون عن الأغيار، وهم الأكثر شعبية وحضوراً، ولا يختلطون بغيرهم، ويؤمنون بجميع الكتب اليهودية بما فيها المشناة والجمارا.

الأسينيون أو الآسيون من آسى أي الطّيب في الآرامية، ونشأت على الغالب في الأسكندرية في القرن الثّاني قبل الميلاد، ويميلون إلى الزّهد والرّهبة، ويهتمون بالرّوح، ولا يأكلون لحوم الحيوانات.

للمزيد ينظر: العقاد: عبّاس محمود؛ حياة المسيح، ط دار الهلال، القاهرة/ مصر، 2014م، ص: 37 – 42. بتصرّف.

⁸ يؤمنون بالتّوراة المكتوبة أي الأسفار الخمسة، ولا يؤمنون بالتّوراة الشّفوية والشّروحات خلافاً للرّبانيين، ظهرت على يد عنان بن داود [ت 795م] في الدّولة العباسية.

اليهود العقلانيون والعلمانيون

في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهرت فرقة اليهود العقلانيين، ويسمون باليهود الحدائيين أيضا، وهؤلاء يرفضون الأخذ بحرفية النصوص المقدسة والآثار؛ لأنه في الأصل كتبها بشر، وهؤلاء أحدثوا تغييرا فيها، ولهذا قابلتهم فرقة وسط، فقالوا لا نرفض التوراة، ولكن تقرأ في ظرفيتها الزمكانية، فلم يبتعدوا كالعقلانيين اليهود، ولم يتشددوا كالحاخامانيين، ولكن وقفوا موقفا وسطا، وهؤلاء هم اليهود الإصلاحيون، وأجازوا في أمريكا زواج اليهود من غيرهم من الجنسين، كما أجازوا زواج المثليين، وكانت ردة فعل الحاخامانيين شديدة بسبب هذين المذهبين، مما أدى إلى ظهور مذهب رابع، وهم اليهود العلمانيون¹⁰، وهؤلاء فصلوا علاقتهم بالتوراة وغيرها، وإنما هم يهود كاسم لا أكثر، لأن الزمان اختلف، ويرون أن الثقافة اليهودية الأرثوذكسية لا تتناسب مع الواقع، فالتوراة قد تتناسب مع العهد البرونزي أو النحاسي، لكنها لا تتناسب مع العصر الحديث¹¹.

¹⁰ فصل هذا التيار العلماني في اليهودية المعاصرة الكاتب اليهودي يعقوب ملكين في كتابه علمنة اليهودية بصورة كبيرة، يمكن الاستزادة منه.

العلمويّة اليهوديّة المعاصرة

يرى يعقوب ملكين في كتابه "علمنة اليهوديّة" أنّ اليهوديّة العلمويّة هي "يهوديّة بلا شريعة، تفضّل المبادئ على الفرائض"¹²، أي "تعطي أولويّة للقيم والمبادئ الإنسانيّة على فرائض الشريعة"¹³، وعليه مرجعيّة الدّولة، وإدارة الشّأن العام عند العلمويين مرجعيّة إنسانيّة مطلقة، لا علاقة لها بالشّرائع السّابقة، ولا بالنّصوص اللاهوتيّة، وينطبق الشّأن العام على قضايا الدّستور والتّعليم ووضع المرأة والتّعامل مع المختلف اليهودي وغيره.

والأنسنة في العلمويّة اليهوديّة ليس بالمعنى الشّيلريّ الفرديّ في جملمته؛ وإنّما من خلال "ما يقدّمه من تطور للإنسانيّة، هو الذي من المحتمل أن يصبح معيارا لتقييم الأمور"¹⁴، فالأنسنة تنطلق من "قيم إنسانيّة كمقياس رفيع لتقييم وتفضيل القوانين والعادات"¹⁵، وبها "يتمّ اختيار القيم والقوانين حسب إسهاماتها في إنسانيّة المجتمع، أو معاداة الإنسانيّة به"¹⁶، فلا بدّ من "ضرورة تعليم الإنسانيّة من أجل استيعاب قيم أخلاقيّة تتوافق مع قيم هليل (ت: 10م) وكانط (ت: 1804م)، مع الإمام بثقافة الشّعب اليهوديّ وعلاقتها بثقافات الشّعوب في الماضي والحاضر"¹⁷، وقيم هليل وكانط تتمثل في "لا يفعل النّاس بغيرهم ما يكرهونه لأنفسهم، ولا ينظر النّاس إلى غيرهم أنّهم وسيلة بل غاية، وكلّ مبدأ أخلاقيّ ينظر إليه أنّه أخلاقيّ طالما له فاعليّة عالميّة، ولا ينحصر في جماعة واحدة"¹⁸.

والعلمويّ اليهوديّ لا ينظر إلى اليهوديّة كديانة، وإنّما ينظر إليها أنّها ثقافة، هذه النّظرة إلى كونها ثقافة بدأت تتشكل – كما يرى مترجم الكتاب أحمد كامل راوي – في القرن الثّامن

عشر الميلاديّ، وأصبح تشكلا علمانيًا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديّين¹⁹، وحسب رؤية ملكين أنّ العلوّية ترى "الشّعب اليهوديّ هو شعب اختيار ليس بمفهوم الشّعب المختار، بل بمفهوم شعب يختار كلّ أفرادَه سبل تطبيق يهوديّتهم وإنسانيّتهم"²⁰.

ففي التّعليم مثلا يرى العلوّيون أنّ "تعليم اليهوديّة بوصفها ثقافة لا بوصفها ديانة، فيطالب بتعليم إنسانيّ ليهوديّة تتصف بالتعدديّة، ويعرض ثقافات اليهود عبر العصور، ودراسة العهد القديم بوصفه أدبا يهوديًا إبداعيًا، وعرض انفتاح اليهود على ثقافات الشّعوب وتأثرهم بها، وتأثير الثقافة اليهوديّة فيهم"²¹.

وارتبط باليهوديّة العلوّية عدّة جدليات، أولها جدلية الهويّة اليهوديّة، هل هي هويّة ثقافيّة أم دينيّة، فيرى العلوّيون "أنّ معظم اليهود لا يحافظون على فرائض الدّين، ويقبلون اليهوديّة بصفتها جزءا من التّراث التّاريخيّ والثّقافيّ"²²، فاليهوديّة هويّة ثقافيّة لا دينيّة، وبالتالي هي هويّة إنسانيّة وليست لاهوتيّة، فهم "يؤمنون بتطبيق قيم الإنسانيّة في إطار اليهوديّة، وبحريّتهم في اختيار سبل تطبيق اليهوديّة بأنفسهم"²³، أي أنّ الهويّة محكومة بالقيم، وهذه "معايير لتقييم وتفضيل كلّ قانون وشريعة"²⁴، والإنسان مبتكر للقيم وليست لاهوتيّة.

والجدليّة الثّانية هل التّاريخ اليهوديّ مرتبط بالله أم مرتبط بالإنسان، فيرى العلوّيون خطأ التّفسير الأرثوذكسيّ اليهودي أنّ "التّاريخ اليهودي نتيجة لعلاقة الجماعة اليهوديّة بالإله

استنادا إلى عقيدة العهد والاختيار والخلاص"²⁵، بل هو تأريخ مرتبط "بالإنسان وبالظواهر والسلوكيات"²⁶.

والجدلية الثالثة جدلية كتاب العهد القديم، فيشترك العلمويون مع الأرثوذكس على أنه "الأساس المشترك لثقافة كل تيارات اليهود.... ويحتوي الذاكرة الجماعية لليهود"²⁷، لكنه ليس مصدرا لاهوتيا، بل أقرب إلى "الأدب الكلاسيكي اليهودي"²⁸، أو عبارة عن "وثائق يهودية في إبداعات خيالية"²⁹، أي مرتبط باليهودي بصفته إنسانا له تجربته التاريخية والثقافية.

والجدلية الرابعة جدلية الانتماء والاختيار، فيرى العلمويون أن الانتماء مربوط بالقيم الإنسانية والديمقراطية، تحت حقوق المساواة والحرية للجميع، "بما في ذلك التحرر من ديانة الشريعة، ومن كل قانون مُعد لفرضها على من لا يؤمن بها"³⁰، وأن "الدفاع عن الديمقراطية [يكون] من خلال النظام القضائي، ومبدأ فصل السلطات، ومن خلال قوانين التأسيس التي تحافظ على حقوق الإنسان، وتحدد واجباته"³¹، وأن "الديمقراطية لا تقوم على تغلب الأغلبية؛ بل تقوم أيضا على الدفاع عن حقوق الأقلية والفرد"³²، وفي الحكم الديمقراطي يجب فصل المؤسسة الدينية عن مؤسسات الحكم؛ لأن مؤسسات معظم الديانات تتعارض مع الديمقراطية"³³.

والجدلية الخامسة جدلية المجتمع اليهودي القومي، حيث يرى العلمويون أن "كلّ مجتمع إنساني هو مجتمع قومي"، وبما أن القومية مرتبطة بالثقافة، والثقافة تندمج في

25

26

27

28

29

30

31

32

33

الثقافات الإنسانية، عليه لابدّ من القومية اليهودية أن تفتح على ثقافات الشعوب في التعليم والإعلام والصحافة والأدب والإبداع واللغة والفنون.

والجدلية السادسة جدلية الأخلاق ومدى ارتباطها اللاهوتي بالشريعة، فيرى العلميون أنّ الأخلاق إنسانية عامة، "مختارة بشكل عقلائي حسب مدى إسهاماتها في إنسانية الفرد وجوهر حياته"³⁴، وهي حاکمة على ما يعارضها ممّا جاء في الشرائع؛ لأنّ صلاح "الإنسان، وجوهر حياته، هما غاية كلّ القيم والقوانين"³⁵، وليس بالضرورة أن تتوافق مع الأوامر أو الشرائع اللاهوتية، وأنّ "القيم العقلانية شرط لإنسانية المجتمع ويقاس عليها صالح الإنسان، وماهية حياته، ومستوى إنسانية، وهي منتهى الفضيلة"³⁶.

والجدلية السابعة جدلية مصدر السلطة، فيرى العلميون أنّ الإنسان هو مصدر السلطة وليس النصّ اللاهوتي، والإنسان وحده "خالق القيم والقوانين، وعلى ذلك فله قدرة تغييرها، وتحديد صلاحيتها، وطريقة تقنينها"³⁷، والديمقراطية تتعارض مع القول بلاهوتية مصدر السلطة.

والجدلية الثامنة جدلية ظرفية النصّ الديني، فالعلميون لا يرون أنّ النصّ الديني خاضع للظرفية الزمكانية كما يرى العقلانيون والإصلاحيون اليهود؛ بل أنّ الشعوب هي من ابتدع ذلك حسب الزمكانية، وهم "من ابتدعوا في كلّ الثقافات ديانات ومجموعة من الطقوس والشرائع والفرائض تمثل كلّها عقائد، وأحياناً تتضمن ... مبادئ للسلوك الاجتماعي والمطالب الأخلاقية"³⁸، "ومع تجريد المقدّسات من القداسة؛ أصبح من المتعارف عليه أنّ الناس هم

34

35

36

37

38

الَّذِينَ ابْتَكُرُوا اللَّهَ عَلَى صُورَتِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ"³⁹، أي بمعنى تضخم اللاهوت الكلامي والفلسفي اللاهوتي حول الإله أو وجوده.

والجدلية التاسعة جدلية صورة الإله، ففي اليهودية نجد رؤية الإله أصبحت متعددة بين الصورة الكلاسيكية المشخصة للإله كما عند الأرثوذكس بغض النظر عن جدلياتهم الجزئية في الشخصنة اللاهوتية، وهؤلاء يقابلهم بوجود إله غير مشخص، أو إله "لا يهتم بنا، ولا يؤثر في العالم"⁴⁰، وما بين نظرة سبينوزا (ت: 1677م) المتمثلة في أنّ "الوجود الإلهي والألوهية تتجلى في الطبيعة"⁴¹، أو نظرة بوبر (ت: 1965م) أنّ الرب رمز للكون، أو نظرة أينشتاين (ت: 1955م) المدرجة تحت "المشروعية الكونية المتزامنة مع العالم الصغير والكون الكبير"⁴²، وهؤلاء يدرجون تحت طائفة الملحدّين في الثقافة اليهودية المعاصرة، كما يقابلها فئة اللاأدرية التي ترى أنّ الإيمان بوجود إله أو عدمه لا يغيّر شيئاً في حياة الإنسان، ومع قرب العلميّين من الفريق الثاني، أي تأثير الإنسان في صنع صورة الإله وشخصنته، إلّا أنّهم يرون حرية كلّ فرد "طبقاً لمعتقداته، وحسب شرائعه وسلوكياته الدينيّة والثقافية، بشرط ألا تكون متعارضة مع قوانين الدولة الديمقراطيّة"⁴³.

والجدلية العاشرة جدلية معاداة السامية، فلا يراها العلميّون أنّها عقاب من الله؛ "بل عنصريّة سقيمة تستشري بين شعوب كثيرة"، وابتدأت في العصر الهلينيّ كردة فعل على الخصوصية اليهودية، كنظرتهم السلبية إلى التوحيد ويوم السبت والختان، وتعمّقت في المسيحية بعد تحولها إلى دين رسمي في العصر الهلينيّ، وزادت المعاداة بعد الحدث النازي في أوروبا في العصر الحديث، وهي لا تخرج عن الإطار العنصريّ، ولا ارتباط فيها لاهوتياً بالعقاب الإلهي.

وهناك جدليات أخرى كجدلية لاهوتية الدولة، والهوية من حيث التعددية والخصوصية، صورة العلمويين أصبحت واضحة من خلال منطلقها الإنساني من حيث النظرة الكلية لفهم ما دون ذلك من هويات دينية أو عرقية أو قومية. فالعلموية اليهودية وإن تأخرت عن العلموية المسيحية، إلا أنها ساهمت في تشكل رؤية جديدة للإنسان والدولة والفرد وهوية المجتمع، هذه العلموية اقتربت منها الرؤية اللاهوتية في المنطلق الإنساني تحت مظلة العقلانية والإصلاحية، وتحت قراءة النص الديني من حيث الأنسنة والعقلنة والتأريخية الظرفية، وهو ما يحدث في قراءات الأديان الأخرى كالإسلام والهندوسية وغيرها، لتشكل قراءات أكبر تتجاوز الهويات الدينية إلى فضاء الإنسان.

الثنائية في الاجتماع اليهودي

ارتبط خطّ اجتماع بني إسرائيل قديماً بثنائيتي السّامريين واليهود، ثمّ ارتبط اليهود قبل ميلاد المسيح وبعده بثنائيتي الصّدوقيين والفريسيين، وفي الحضارة الإسلاميّة ارتبطوا بثنائيتي الرّبانيين والقرائيين، واليوم في ضوء الحضارة الغربيّة يرتبطون بثنائيتي الأرثوذكس والعلمويين، والخطّ الأرثوذكسي [الحاخامانيين – الحاسيديم – الحريديم] امتداد لخط الرّبانيين، والذي هو امتداد لخط الفريسيين، واليهود القراءون يقتربون من الصّدوقيين خصوصاً من جهة الإيمان بالأسفار الخمسة فقط، بينما [الإصلاحيّون – العقلائيّون – العلمويّون] فهي تمثّل جديد في قراءة النّص الدينيّ من حيث القيم الكبرى، والظرفيّة، والأنسنة، بين من يرى مصدرية النّص اللاهوتيّ التّوراتيّ لكن يقرأ وفق الظرفيّة الزمكانيّة كما عند اليهود الإصلاحيين، وبين من يرى النّص اللاهوتيّ التّوراتيّ ثقافة غير ملزمة، محكوم بالأنسنة والقيم الكبرى كما عند العلمويين، في حين يقترب العقلائيّون من العلمويين، لكنهم لا يعتبرون النّص اللاهوتيّ التّوراتيّ ثقافة استقلالاً؛ لكنهم أيضاً يرفضون القراءة الحرفيّة له، وإنّما يقرأ حسب ثقافة اليوم الذي نعيشه.

اليهود والتّوراة والتّلمود

اليهود الأرثوذكس يؤمنون بالتّوراة المتضمنة للأسفار الخمسة [التّكوين والخروج واللاويين والعدد والتّثنية] المنزلة على موسى حرفا حرفا، واليهود لا يؤمنون بالعهد القديم عند المسيحيين، وأنّما وضعه المسيحيون ليكون مقابلا للعهد الجديد، أي الأناجيل الأربعة وأعمال الرّسل، والعديد أيضا من اليهود قديما وحديثا لا يرون أنّ الأسفار الخمسة نزلت حرفا حرفا، وأنّما كتبت في فترات لاحقة ومختلفة⁴⁴، وحدث فيها بعض التّعديل، بجانب اليهود الأرثوذكس يؤمنون بأسفار الرّسل كسفر أشعيا، والآيات والأدعية، ولا يعرف من كتب التّوراة، وأنّما التّوراة السّبعينيّة⁴⁵ فهي ترجمة للتّوراة من العبريّة إلى اليونانيّة من قبل اثنين وسبعين حبرا.

وأنّما التّلمود فهو يشبه ما عند المسلمين الحديث، ففي اليهوديّة أقوال وأعمال قام بها النّبّي موسى، وهي غير موجودة في التّوراة، وقام اليهود بعد فترة طويلة من وفاة موسى بالاهتمام بها، فكانت المشناه وهي الرّواية الشّفويّة توضع في الأعلى، وفي الأسفل يضعون الشّروحات والخلافات بين الفقهاء اليهود وهي الجمارا، والاثنان يطلق عليهما التّلمود [أي كتاب الدّراسة].

⁴⁵ جاء في الموسوعة العالميّة ويكيبيديا: "السّبعينيّة هي التّرجمة اليونانيّة للعهد القديم التي أجريت في القرن الثّالث قبل الميلاد، حيث يذكر أنّ بطليموس أراد أن يضمّ إلى مكتبة الإسكندريّة الكتب المقدّسة لليهود، والبعض يرى أنّه بسبب عدد اليهود الذين لا يعرفون إلاّ العبريّة قام اثنين وسبعون من الأبحار بالترجمة".

اليهود ومعتقد ما بعد الحياة

ما يتعلّق باليوم الآخر والجنّة والنّار فاليهود الأرثوذكس أو التّقليديون يؤمنون بذلك، وذكر اليوم الآخر في التّوراة بشكل غير صريح، وتوجد أيضا إشارات غير صريحة للعذاب والنّعيم والبعث أو قيام الأموات، وهي إشارات غير قطعّيّة، فلهذا أغلب اليهود لا يؤمنون بها خلافا لليهود الأرثوذكس⁴⁶.

اليهود وجبل صهيون

الصهيونية نسبة إلى جبل صهيون بالقدس، وهو المكان المقدس عند اليهود، خلافاً للسامريين؛ إذ المكان المقدس لديهم هو جبل جرزيم، وينكرون تقديس اليهود لجبل صهيون؛ لأنه لم يذكر في التوراة أي الأسفار الخمسة، وإنما ذكر في التناخ كما جاء في سفر أشعيا، والسامريون لا يؤمنون بالتناخ كنص ديني له قداسته.

المكان المقدس عند اليهود وحرمتهم في الأعلى هو جبل صهيون، وفي أعلاه يوجد الهيكل الذي بناه سليمان، ودمر البابليون الهيكل، وأرجع في عهد الفرس، وفي عهد هيردوس الروماني (ت: 4 ق م) قام ببناء الهيكل في شكل جميل جداً، وبني حائط المبكى في الأسفل، وفي عام 70م دمر الهيكل (في عهد تيتوس ت: 81م)، وأبقى الحائط، لهذا أغلب اليهود حتى اليوم يقفون عند الحائط، ويدعون الله عنده، ويطلبون التوبة والمغفرة، والقليل من يصعد إلى الأعلى، حيث يعتقد بعضهم بوجود الوصول إلى الأعلى، ولكن غالب اليهود يكتفون بالوقوف عند الحائط، وفئة قليلة جداً من اليهود الأرثوذكس لا زالت تعتقد أن المسيح سوف يأتي، ويعيد بناء الهيكل من جديد، ومعظم اليهود عموماً لا يؤمنون بفكرة مجيء المسيح.

المهودية والسامية

في القرن التاسع عشر الميلاديّ في أوروبا ظهر الاهتمام بموضوع السامية مع مورتس شتاين شنايدر وويلهيلم مار، وقد كان موضوع السامية قديما موضوعا تاريخيا مرتبطا بالبعد اللاهوتيّ، في الأصالة ارتبط بالعهد القديم في سفر التكوين من حيث أبناء نوح، وارتباطهم بابنه سام، بيد أنه لم يكن محصورا في بني إسرائيل، ولا عند السامريين واليهود، عرقيا يشمل حتى العرب والآشوريين والبابليين والآراميين بما فيهم الفلسطينيين ذاتهم، كما أنه لا علاقة له بالدين السامريّ أو اليهوديّ، فيدخل فيه - حسب العرق - جميع الأديان التي ارتبطت بهذا العرق، وخصوصا المسيحية الشرقية والإسلام والصابئة المندائية، وفي الدراسات الأكاديمية الغربية ما بعد القرن الثامن عشر الميلاديّ ارتبط مصطلح السامية باللغات القديمة باسم اللسان أو العائلة السامية، وهذا ليس محصورا في العبرية (بكسر العين) فيدخل فيه العربية (بفتح العين) والآرامية والسريانية وغيرها من اللغات القديمة وفق العائلة السامية.

بعضهم يرجع العداء ضدّ السامية إلى البعد الدينيّ في الجانب المسيحيّ - اليهوديّ، خصوصا بعد اعتناق بولس للمسيحية، فأصبحت عالمية بعدما كان التكوّن المسيحيّ الأول في ذات الدائرة السامية اليهودية، بيد أن اليهودية ذاتها مع كونها ديانة عرقية إلا أنّ العديد من الأعراق الأخرى انفتحت على هذه الديانة، ولم تعد محصورة في الجانب الساميّ الإسرائيليّ، والصراع اليهوديّ - المسيحيّ صراع لاهوتيّ أكثر منها صراعا عرقيا، واشتدّ ظهور البعد العرقيّ في المسيحية قديما بسبب اعتناق الرومان للمسيحية بعد قسطنطين الأكبر 313م، والرومان لهم تعصّبهم العرقيّ ضدّ الأعراق الأخرى، والذين يرجعون إلى الهيلينيين القدامى في اليونان، هذا الأمر ذاته ظهر في أوروبا من حيث العائلات اللغوية المباشرة للسامية، ومن حيث الأعراق الأوروبية ذاتها، والتي أظهرت تعاليا على غيرها من الأعراق، على رأسها العرق الآريّ والذي ظهر في ألمانيا النازية وارتباطها بهتلر (ت: 1945م).

السّامية والهولوكوست

السّامية حتّى ما بعد القرن التّاسع عشر الميلاديّ لا علاقة حصريّة لها باليهود ديناً، ولا ببني إسرائيل عرقاً، ولا بالعبريّة لغة، وارتباطها بشكل كبير في أوروبا بعدما أثير من قضية الهولوكوست، أو الإبادة النّازيّة لليهود، وبعد تبلور فكرة المظلومية اليهوديّة، وتأسيس الصّهيونيّة العالميّة، سنّت القوانين المجرّمة لمعاداة السّامية، وأصبح من الصّعوبة محاولة مراجعة حقيقة الهولوكوست، والذي ضخم إعلامياً وسياسياً وفنياً، وتمّ توظيفه معرفياً وأكاديمياً، وربط باليهود، حتّى أصبح العقل الجمعيّ الغربيّ خصوصاً لا يستطيع فصل مصطلح السّامية عن اليهود، لتوظيف هذه الفكرة سياسياً في إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، وتوظيفها سياسياً ودينياً وإعلامياً، وإن كانت السّامية بهذا التّخصيص فكرة ساذجة لا قيمة معرفيّة لها، ولا تنبني على أصول تاريخيّة معرفيّة، ولا حتّى لاهوتيّة أو عرقيّة لغويّة.

على أنّ توظيفها في الصّراع العربيّ - الإسرائيليّ، ومخاطبة العقل الجمعيّ الغربيّ وفق هذه الصّورة المتكرّرة لم تعد مجدّية اليوم، فما أشار إليه نتنياهو مثلاً في خطابه أمام الكونجرس الأمريكيّ 2024م يدلّ على تراجع جدوى استخدامها، ومن كلامه: "وتماماً كما تمّ لصق أكاذيب خبيثة بالشّعب اليهوديّ على مدار مئات السّنين، فإنّه يتمّ لصق أكاذيب خبيثة بالدولة اليهوديّة هذه الأيام، وتهدف كلمات التّشهير السّخيفة التي تسعى لطرح إسرائيل بمظهر الدّولة العنصريّة والدمويّة إلى نزع شرعيّة إسرائيل، وشيطنة الدّولة اليهوديّة واليهود مهما كانوا، ولا مفاجأة فيما نشهده من تصاعد مفرّغ لمعاداة السّامية في الولايات المتّحدة وحول العالم" [النّصّ منقول من ديوان رئيس مجلس الوزراء الإسرائيليّ بالعربيّة].

من يعادي السّامية اليوم؟

يشير إسرائيل شاحاك في كتابه "الأصولية اليهودية في إسرائيل" بالتعاون مع نورتون ميزفينسكي إلى تحكّم إسرائيل بما ينشر دوليًا، "وهذه الحقائق [أي تطرف الأصولية اليهودية في إسرائيل] نادرا ما تذكر أو توصف بدقة في التغطية الإعلامية الهائلة لإسرائيل في الولايات المتحدة، وفي أماكن أخرى"⁴⁷، فكان العقل الصهيوني هو المتحكّم دوليًا في الإعلام الغربي فيما يتعلّق بالشأن الإسرائيلي، ومحاولة اقتراب العقل الغربي من تفنيد هذا الإعلام الممنهج يقودهم إلى متاهات "معاداة السّامية"، هذا اليوم مع الإعلام الجديد لم يعد مجديا، وظهر بشكل كبير بعد أحداث 7 أكتوبر 2023م، وما يحدث حاليا من تجويع ممنهج في غزّة، وما عمله إسرائيل من خرق القوانين الدوليّة المتعلقة بحقوق الإنسان، يزيد من هشاشة فكرة معاداة السّامية.

فمقارنة بسيطة بين ما قام به هتلر [بعيدا عن التّضخيم الإعلامي] ضدّ اليهود، وبين ما قامت به الأصولية اليمينية المتعصّبة في إسرائيل، وما يقوم به نتنياهو حاليا ضدّ الفلسطينيين بأطيافهم، والجميع ساميون – كما أسلفنا -، عرقا ودينا ولغة، فالذي يعادي السّامية اليوم، ويسعى إلى نشر خطاب الكراهية وتمدّدها؛ هي إسرائيل ذاتها، ويفوق ما نسب إلى هتلر بمئات المرات، بل لا مقارنة بينهما.

اليهود وموقعهم في التاريخ المسيحي والإسلامي

إن كان هناك - تاريخياً - صراع دموي في أوروبا بسبب ما بثته الكنيسة الكاثوليكية خصوصاً ضد اليهود بسبب الخلاف اللاهوتي القديم في قضية المسيح وصلبه، أو بسبب التّعصب العرقي الأوروبي ضد الأعراق الأخرى؛ هذا لا علاقة له بالشرق عموماً، ولا بالعرب خصوصاً، إذا ما استثنينا الأحداث الأولى في الإسلام المبكر في المدينة المنورة حسب الروايات التاريخية وقرأناها بعيداً عن ظرفيتها؛ فقلّ ما يذكر التاريخ صراعاً بين العرب كانوا مسلمين أم مسيحيين أم غيرهم مع اليهود لأسباب لاهوتية أو عرقية، بل كان لليهود حواضرهم، ولهم حضورهم المعرفي والأدبي في الحضارة العربية والإسلامية، يقول اليهودي المعاصر أوري أفنيري (ت: 2018م): "كلّ يهوديٍّ مستقيم، يعرف تاريخ شعبه، لا يمكنه إلا أن يشعر بالعرفان تجاه الإسلام، الذي حى اليهود طيلة خمسين جيلاً، في الوقت الذي كان العالم المسيحي فيه يلاحقهم، وحاول في العديد من المرات إجبارهم على تغيير دينهم بالسيف"⁴⁸ يثبت ذلك تماماً، فمعادة السّامية واقعا وإعلامياً من يقودها اليوم إسرائيل ذاتها، ورميها التّهمة على الآخر من باب "رمتني بدائها وانسلت".

اليهود ومسألة الدولة

في مسألة الدولة التأويل اللاهوتي اليهودي ابتداء يرى أنّ هذا مرتبط بالمخلص، وهو من يقيمها، وقد كتب عليهم الشتات، ولا يجوز أن يكون توحيدهم إلا عن طريق المخلص، ففكرة إسرائيل الحالية هي فكرة مسيحية بروتستانتية في الابتداء وليست يهودية، لهذا ولدت جماعات في المسيحية تؤيدها كالمسيحيين أو الأذنتست ثمّ شهود يهوه، لتعجيل عودة المسيح، وإقامة مملكة الربّ، بينما اللاهوت المسيحي التقليدي يعارض هذه الفكرة تماما، كالأرثوذكس والموارنة، والكاثوليك الشرقيين، بينما الكاثوليك الغربيون وإن كانوا نظريًا يعارضون، بينما عمليًا مرهونون بالسياسات الغربية الداعمة لإسرائيل، وكما أسلفت أنّ إقامة الدولة اليهودية يعارض التقليد اليهودي الأرثوذكسي (الفريسيون خصوصا)، والأصل كما ذكر تيودور هرتزل (ت: 1904م) في مسألة الدولة اليهودية أنّها علمانية وليست ثيوقراطية، لكنّها مع مرور الوقت غلب عليها الثاني دينا لا عرقا، وغلب عليها اليمين اليهودي الأرثوذكسي المتطرّف.

فكرة الدولة الدينية ليست حاضرة عند اليهود حتّى الأرثوذكس، بما فهم اليهود الحاخامانيون، ويرون أنّ الشتات هو قضاء إلهي نتيجة عصيانهم وذنوبهم، وأصبحت جدلية المسيح غير حاضرة في موروثهم، ورجوعهم يكون بأمر الله وحده، لهذا توجد طائفة كبيرة منهم حتّى اليوم يرفضون فكرة الدولة اليهودية كالتناطوريين، كما يوجد العلمويون من يرون الدولة اليهودية دولة علمانية وليست دينية، واليهودية في داخلها ثقافة لا أكثر.

اليهود ومسألة إسرائيل الكبرى

ما يسمّى بإسرائيل الكبرى اليوم نوع من الوهم؛ لأنّه إذا خرجنا من التّأويل التّاريخيّ نجده لاهوتيّاً مرتبطاً بالعرق وليس مرتبطاً بالدّين، فقد ورد الإشارة إليها في العهد القديم ثلاث مرّات في التّوراة، أي في التّكوين والخروج والتّثنية، ومرة في التّنّاخ أي في يشوع، وارتباط ذلك كان بإبراهيم، وقد أصبح عجوزاً لا عقب له، ثمّ رزق بإسماعيل من هاجر، وبإسحاق من سارة، والتّركيز التّوراتيّ كان على الثّاني لأنّ من ذريّة إسحاق ومن نسل أسباط يعقوب سيكون النّبّي موسى، مثلاً في سفر التّكوين [إصحاح: 15، آية: 18] "في ذلك اليوم قطع الرّبّ مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النّهر الكبير، نهر الفرات"، والنّصّ متعلّق بإبراهيم، وأنّه لا عقب له، وأمره الله أن ينظر إلى السّماء وأن يعدّ النّجوم، هكذا يكون نسله، وفيما يتعلّق بميراث الأرض من بعده، ولم يقصر هذا الوعد بكثرة النّسل عند إسحاق؛ بل عند إسماعيل أيضاً، "أمّا إسماعيل فقد أستجيب لطلبك من أجله، سأباركه حقّاً، وأجعله مثمراً، وأكثر ذريّته جدّاً، فيكون أباً لاثني عشر رئيساً، ويصبح أمّة كبيرة" [التّكوين، إصحاح: 17، آية: 20].

وإذا كان الارتباط بكثرة النّسل أنّه سيخرج من نسل إبراهيم أمم وملوك كثيرون لهذا غيّر اسمه من أبرام إلى إبراهيم أي الأب العظيم، "لأنّي أجعلك أباً لجمهور من الأمم، وأصيرك مثمراً جدّاً، وأجعل أمماً تتفرّع منك، ويخرج من نسلك ملوك، وأقيم عهدي الأبدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك جيلاً من بعد جيل، فأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأهبك أنت وذريّتك من بعدك جميع أرض كنعان، التي نزلت فيها غريباً، ملكاً أبدياً، وأكون لهم إلهاً" [التّكوين، إصحاح: 17، آية: 6 – 8]؛ بمقاييس العرق ينطبق اليوم على ذريّة إسماعيل ومنهم غالب العرب، وليس على ذريّة إسحاق، فقد حصر اليهود ذاتهم في أسباط يعقوب بن إسحاق، ثمّ انقضوا شيئاً فشيئاً، حتّى ينعدم أو يضعف على الأقل وجودهم اليوم، لهذا اضطرّ اللاهوتيون اليهود إلى ربط تحقّق ذلك بإقامة الوصايا، ومراد "وأقيم عهدي معه ومع ذريّته من بعده عهداً أبدياً" [التّكوين، إصحاح: 17، آية: 19] أي بإقامة الوصايا، ففي سفر التّكوين ربطت بإقامة العهد وعلى رأسها تحقّق الألوهيّة ورفض مظاهر الوثنيّة "فأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك"، وفي سفر الخروج ربطت بالوصايا العشر وإقامة بعض أحكام الشّريعة، وفي سفر

التثنية ربطت بإقامة أحكام الشريعة، وهذا يظهر أيضا عند اللاهوتيين المسلمين أن ربط التفضيل تاريخيا كان لإقامة الشريعة، وإظهار التوحيد كما في سورة البقرة، آية: 40: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، بينما ذهب اللاهوتيون المسيحيون إلى رمزية مجيء المسيح كما في كتاب "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس": "قطع الله معه [أي إبراهيم] عهدا، وأخبره أنه سيكون مؤسسا لأمة عظيمة ... ولن يبارك الله هذه الأمة فحسب، بل ستبارك بها أمم العالم الأخرى، وكل ذلك من أجل إبرام ... ومن شجرة عائلة أبرام سيولد يسوع المسيح ليخلص البشرية، فمن خلال المسيح تستطيع كل الشعوب وكل الأمم أن تكون لها علاقة شخصية مع الله، وأن يتباركوا بركة بلا حدود".

فمسألة إسرائيل الكبرى لاهوتيا لا علاقة لها بالدولة قديما ولا حديثا، جاءت إشارة إلى مركز العالم القديم في إقامة وصايا الرب، ولهذا كثر الله نسل إبراهيم لإقامة هذه الوصايا، وتحقيق وحدانية الإله، ثم ارتبطت بالخلاص بعد السبي البابلي، وهي فكرة خلاصية قديمة لها أصولها في بلاد ما بين النهرين، وحضورها في جلجامش مثلا، فانتقلت في اليهودية، فالمسيا (المسيح) سيأتي من نسل داود، وهو من يقيم مملكة إسرائيل رمزيا عند السامريين أي يقيم العدل، ويرفع الظلم، وأرثوذكسيا عند اليهود أي يرجعهم من الشتات، ويقيم مملكة إسرائيل، ثم انتقل هذا إلى المسيحية في المجيء الثاني للمسيح، كما انتقل عند الطوائف الإسلامية في نزول المسيح، ومجيء المهدي لإقامة العدل ورفع الظلم، وغالب هذا التأويلات ربطت الرجعة أو المهدوية بهذه المنطقة في الشرق القديم، في بلاد الشام والعراق (بين النهرين) وما بينهما وفق تنقلات إبراهيم من أور (بين النهرين) إلى حران (جزيرة العرب) ومنها إلى كنعان (بلاد الشام)، بسبب العيش في نصوص تاريخية لا تتجاوز حدودا هذه المنطقة من العالم القديم.

الدولة في نظر تيودور هرتزل

لمّا جاء تيودور هرتزل (ت: 1904م) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلاديّ، وألف كتابه "الدولة اليهودية"، كانت فكرته علمانية وليست دينية، حيث يضع هذا السؤال في كتابه: "هل سننتهي إلى حكومة ثيوقراطية؟"، فيجيب: "لا بالتأكيد، إنّ العقيدة تجمعنا، والمعرفة تمنحنا الحرية، ولذلك سنمنع أيّ اتجاهات ثيوقراطية تتصدر قيادتنا من جانب الكهنوت، سوف نحصر كهنتنا داخل حدود المعابد"⁴⁹.

وحقّ عهد هرتزل كانت المسألة اليهودية مسألة علمانية، غير متقبلة حتى في الوسط الدينيّ بشكل كبير، وفكرة قيام الدولة في فلسطين لم يكن اختيارا كبيرا، فكان يماثله أو يزيد عنه اختيار الأرجنتين، لكونها كما يرى هرتزل "أكثر بلاد العالم خصوبة، وهي تمتد على مساحات شاسعة، وفيها عدد قليل من السّكان، ومناخها معتدل، وجمهورية الأرجنتين سوف تحصل على مكاسب كبيرة إذا تنازلت لنا عن قطعة من أراضيها"⁵⁰.

إلا أنّ الارتباط التاريخيّ لليهود بفلسطين في العقل اليهوديّ الجمعيّ كما يراه هرتزل قد يقنع شريحة أكبر من اليهود، كما يمكن استثمار الخطاب الدينيّ بما يحقق فكرة الدولة، بيد أنّ الفكرة من الأساس كما أسلفنا فكرة علمانية لجمع الجنس الإسرائيليّ في مكان واحد، وليخلصهم من الاضطهاد الغربيّ، وأن يغلب على قيامها السّلم والتّعايش مع الآخر، حيث كان وضع اليهود حينها في أوروبا كما يرى هرتزل أنّ "مساواتهم [أصبحت] أمام القانون التي منحها لهم التّشريع حبرا على ورق، فهم محرومون من شغل الوظائف ذات الأهمية النسبية سواء في الجيش أو في مجال عام أو خاص، بل إنّ المحاولات قائمة لإبعادهم عن شتى المهن أيضا "لا تشتري من اليهود"⁵¹.

فهل نجح هرتزل في إبعاد الدّين عن القضية، أم أنّ قضيتّه استغلت من قبل الاستعمار الغربيّ تحت لباس الدّين ذاته، لتتحول إسرائيل من دولة علمانية إلى دولة أصولية دينية

متحكمة في السياسة الإسرائيلية، فيرى إسرائيل شاحك ونورتون ميزفينسي أنّ "الأصولية اليهودية ليست قادرة على التأثير فقط في السياسات الإسرائيلية التقليدية؛ ولكنها قادرة أيضا على التأثير على السياسات الإسرائيلية النووية، ونفس العواقب الأصولية التي يخشاها الكثير من الأشخاص في بلدان أخرى يمكن أن تحدث في إسرائيل"، وأنّ المفردات الدينية التلمودية "قد استخدمت وما زالت تستخدم في السياسة الإسرائيلية، ويستشهد بها غالبا في الصحافة الإسرائيلية الناطقة بالعبرية"⁵².

ومع كون الثقافة العلموية شائعة بكثرة في إسرائيل، إلا أنّ الأصولية اليهودية المتعصبة أصبحت هي المتحكمة حتى في القرار السياسي اليميني المتطرف، ومن خلال اللباس اليهودي ذاته، ممّا جر المجتمع إلى مزيد من العنف والقتل واضطهاد الآخر؛ لأنّ الخطاب اللاهوتي المغلق أصبح مؤثرا في السياسة الإسرائيلية.

القضية الفلسطينية والمقدس

أصل المقدس الحقيقي القضية الفلسطينية هو الإنسان وليس الحجر، فالحجر مقدس إضافي لنصوص خارجية أضفت إليه قدسيّة ما، كان المقدس أرضاً أم دور عبادة أم جبلاً أم حائطاً، أمّا الإنسان فقدسيّته ذاتية، أيّا كان دينه ومذهبه وتوجهه الفكري والسياسي، ووضعه الاجتماعي والعشائري، وفي فلسطين قبل أن نتحدّث عن مقدّسات الأديان الماديّة نحن نتحدّث عن الإنسان الفلسطيني، والذي تكالب عليه الظلم المعنويّ منذ وعد بلفور، ثمّ أضيف إليه الظلم المادي من تهجير واغتصاب أرض منذ عشرينيات القرن العشرين، ومن ثمّ نكبة 1948م وحتى اليوم، فهذا الإنسان كان مسلماً أم مسيحياً أم يهودياً أم سامرياً أم غيرهم وقع عليه الظلم ولا يزال يقع، والله تعالى يقول: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج/ 39 – 40]، حيث اغتصبت أرضه، وأخرج بغير حق، فضلاً عن المجازر والدماء والتشريد في الأرض.

ليست القضية قضية المسجد الأقصى وكنيستي المهد والقيامة، وحائط المبكى، وجبلي جرزيم وصهيون أكبر من قضية هذا الإنسان، والذي ينبغي للعالم أجمع أن يقف معه كإنسان وقع عليه ظلم من قوى كان هدفها التخلّص من فئة لاهوتية متعصبة، فتضرّر بذلك حتى اليهود أنفسهم، كما وقع الظلم على باقي الأديان والتوجهات الأخرى، والغالبية من المسلمين لكون الكثرة لهم هناك، ولو كانت الكثرة للمسيحيين أو السامريين لكان ظلماً لا يجوز الوقوف معه، وقد كان الجميع قبل النكبة يعيش بحريّة، ويمارس طقوسه وعباداته، فلم تمارس العنصريّة ضدّ أيّ أحد بحال، فالقضية في الحقيقة قضية إنسانية مقدّسة لذات الإنسان، ومتى وقع الظلم عليه وجب حمايته ونصرته بأيّ شكل من الأشكال.

هنا ضرورة أن يتمحور العقل العربيّ خصوصاً في جانب الخطاب، حيث حصر القضية خطابياً في الجانب الإسلاميّ اللاهوتيّ الضيق لن يودّي إلى نتيجة شاملة؛ لأنّ لباقي الأديان

نصوصهم، لهذا لا بدّ من الرجوع إلى ماهيّة الذات، وإنسانيّة الحقوق، بحيث يكون الخطاب الموجه للعالم أجمع بلغاته خطاباً إنسانياً لأمة وقع عليها الظلم البين والواضح، والجانب الإنسانيّ في الطّرف الفلسطينيّ قويّ جدّاً إذا ما أحسن استثماره؛ لأنّ الأنسنة والظلم لا يجتمعان بحال، فالأول ذاتي والثاني عرضي، فإذا دخل العرضيّ وجب الرجوع إلى الذات وترك ما عداه أيّاً كان مصدره وتأويله ولو مقدّساً عند فئة من النّاس.

لماذا انتفض الإنسان الغربي مع الفلسطيني؟

نجد اليوم مئات المظاهرات في العالم، والدّاعمة للقضيّة الفلسطينيّة، ليس على المستوى العربيّ والإسلاميّ فحسب، بل أصبحت هذه المظاهرات إنسانيّة، واقفة عند الإنسان الفلسطينيّ، وفي بلدان داعمة للاحتلال، ومجرّمة لكلّ ما هو ضدّ السّاميّة، حيث هناك آلاف المتظاهرين في ولايات أمريكيّة وفي لندن ومانشستر وغلاسكو وباريس وبرلين وتورونتو وسيدني ومدريد وبلباو وبرشلونة وفالنسيا وفيينا وهلسنكي وهاسلرهولم وموستار وبريشتينا وهاملتون وأوكلاند، وغيرها كثير.

هؤلاء المتظاهرون ليسوا من المسلمين فقط، وليسوا من المهاجرين العرب فحسب؛ بل شاركهم من غير المسلمين من الأديان الأخرى، حتّى من اليهود الرّافضين ما تقوم به الصّهيونيّة من إبادة في غزّة، وظلم في فلسطين، ومن المسيحيّين البروتستانت الرّافضين للظّلم والإبادة والوحشيّة غير الإنسانيّة بحقّ الفلسطينيّ، ومن غير العرب من أحرار العالم، ومن منظمات حقوقيّة وإنسانيّة عالميّة.

فضيّة غزّة وفلسطين اليوم لم تعد قضيّة عربيّة أو إسلاميّة فحسب؛ بل هي قضيّة إنسانيّة، ما جرى في غزّة وفلسطين أصبح مفتوحا مدركا في العالم أجمع، ولئن كان الإعلام سابقا موجهها حسب ما تريده السّيّاسات خصوصا الغربيّة، ولما غرسته لسنوات طويلة في العقل الغربيّ، من خلال الصّحافة والتّلفزة والسّينما، في تصوير العرب بما فهم الفلسطينيون بالوحشيّة والبربريّة، ولما أشاعته من المظلوميّة اليهوديّة، وبدعوى محاربة السّاميّة، مع أنّ الظّلم اليهوديّ في القرون الوسيطة وما بعدها خصوصا لا ذنب للعرب والمسلمين به، وحتّى اليوم اليهود متعايشون في الدّول الإسلاميّة مع المسلمين وغيرهم كما في تونس والمغرب مثلا، ولهم مكانة ومنزلة سياسيّة وعلميّة وفنيّة وتجاريّة قديما وحديثا.

شيرين أبو عاقلة وعناق الهلال بالصليب

في صباح الأربعاء الحادي عشر من مايو/ أيار 2022م انتشر خبر هزّ العالم أجمع، شرقاً وغرباً، وانتفضت له وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وشعر الجميع بالحزن والمأساة لهذه الحادثة الأليمة، والتي لا يكاد تنطفئ إلا وتسمع أخرى، مع القتل والقمع لعشرات من الأبرياء. هذه الضّحيّة تمثلت في صحفّية ضحّت لعقدين من الزّمن في سبيل وصول الكلمة الحرّة إلى العالم عن طريق شبكة الجزيرة العربيّة، بعد عقود قيّدت هذه الكلمة، وأبعد الإعلام عن ذكر ما يحدث هناك، إلا شذرات ممّا ينشره الأحرار على حقيقته، ومقتطفات متناثرة في وسائل الإعلام العربيّة، وأمّا دولياً فكما يقول إسرائيل شاحك في كتابه مع نورتون ميزفينسكي [معاصر] بعنوان: "الأصوليّة اليهوديّة في إسرائيل"؛ في تحكّم إسرائيل بما ينشر دولياً، وإن كان في معرض آخر، حيث يقول: "وهذه الحقائق نادراً ما تذكر أو توصف بدقة في التّغطية الإعلاميّة الهائلة لإسرائيل في الولايات المتحدة، وفي أماكن أخرى".

التحقت الصحفّية شيرين أبو عاقلة إلى شبكة الجزيرة العربيّة عام 1997م، وهي في أواخر العقد الثالث من عمرها، وقبلها شاركت في مؤسّسات ووكالات إعلاميّة عربيّة ودوليّة، إلّا أنّها استقرّ بها المقام لنشر حقيقة ما يحدث في الواقع الفلسطينيّ مع قناة الجزيرة لعقدين من الزّمن، لما تدركه من أهميّة مصداقيّة الرّسالة الإعلاميّة، ولما تعلمه من المعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطينيّ من تكتيم إعلاميّ لعقود خلت، فكانت خير سفير لفلسطين في إيصال الكلمة الحرّة لأكبر مساحة في العالم، فاشتهرت منذ انتفاضة فلسطين عام 2000م، واستطاعت بتضحية وذكاة كسر حاجز الصّمت الدّوليّ والعربيّ، ليؤثر صوتها على ملايين العرب والباحثين عن الكلمة الحرّة في شرق الأرض وغربها، ليشاركوا الشعب الفلسطينيّ نضالهم، وحقّهم الإنسانيّ، بل وتجاوز ذلك إلى العالم الآخر الذي ضلّل حقيقة الكلمة، فأصبحت القضية الفلسطينيّة بهذا الإعلام الحرّ الذي سهّمت شيرين فيه؛ ليست قضية عربيّة قوميّة، وإسلاميّة فحسب؛ بل قضية إنسانيّة تعاطف معها عشرات المؤسّسات الدوليّة والمدنيّة والإنسانيّة الحرّة، بجانب ملايين الأحرار في العالم، في بمختلف قوميّاتهم وتوجهاتهم وأديانهم.

إنّ ما قدّمته شيرين أبو عاقلة، وهي امرأة ضحّت بأسرتها ووقتها، واشترت أثمان عقود حياتها لأجل هذه القضية، وكان يمكنها أن تمكث في بيتها، وتتسلى بأطفالها وذاتها، ولكنها أدركت أمانة الرسالة التي كُتبت حيناً من الدهر، واشترت بذلك مدركة أنّ ثمنه سيكون عمرها ذاته، ففي أيّ وقت قد تنالها يد الغدر أو السّجن أو النّفي أو حتّى الموت، وهذا ما حدث، فلم يشفع لها أنوثتها، ولا سترتها الصحفيّة؛ لأنّ العدو لا يفهم هذه اللّغة، وهي تدرك ذلك جيّداً، واستعدت له منذ لحظتها الأولى في عملها الرّساليّ، فارتفع حاجز الخوف عنها؛ لأنّ قبرها بنته منذ عقود، وشهادتها لأجل الكلمة الحرّة اشترتها منذ زمن تنتظره، ولا تهاب منه.

لقد التحقت شيرين اليوم بمئات الشّهداء الذين غطت لهم، وأوصلت حقيقة معاناتهم إلى العالم أجمع، فلن ينس مخيم جنين ما قامت به شيرين في كسر حاجز الصّمت لمعاناتهم منذ ألف 1953 م، من فقر وتشريد وحصار، ليزيدهم ألماً عام 2002 م من اجتياح إسرائيليّ، وهدم للمباني وتشريد وتجويع وقتل، فكانت شيرين الصّوت النّاطق لكسر هذه المعاناة، لعلّ العالم يلتفت إليهم بعين الرّحمة والنّصرة، ويدرك حقيقة ما يحدث.

كما لن تنس غزّة ما قامت به شيرين لأكثر من غارة على هذه البقعة من الأرض، مع حصار وتجويع لسنين مضت، وقتل وتشريد وإبادة جماعيّة، ولولا تضحيات شيرين ومثيلايتها من الإعلاميين الأحرار، فألهبت قلوب الملايين؛ لكانت غزّة اليوم أكبر مقبرة في العصر الحديث.

بل لن تنس فلسطين برمتها هذه المناضلة الإعلاميّة، ستذكرها رام الله وبيت لحم وغزّة ونابلس والخليل وخان يونس وأريحا وقلقيلية وجنين والرّملة ويافا وطولكرم والتّاصرة والقدس وجميع تراب فلسطين، وستذكرها الأجيال كقصّة خالدة لا يتجزأ في النّضال الفلسطينيّ، وتشهد لها المساجد والكنائس وجميع دور العبادة كحمامة حبّ وسلام بينهم، وأنّهم سواء في أرض واحدة، وقضيّة واحدة، لا يفرقهم اختلاف دين وفكر وتوجه، فهذه الأرض احتوت حبّاً وسلاماً الأديان لمئات السّنين، وعشقها الأنبياء والقديّسون والفلاسفة، وعاشوا في ترابها، وارتووا من مائها، ونشقوا من هوائها العذب، ليجعلهم أمّة واحدة، في صور وأديان كلّهم سواء في هذه الأرض الطّاهرة.

ومما يدل على هذا أنّ هذا الشعب الذي اعتاد على صوت الأذان، كما اعتاد على أجراس الكنائس، ليعانق المسجد الأقصى كنيسة القيامة، وتعانق القدس بيت لحم، هذه اللّحمة الجميلة تجلّت صورتها مع الفلسطينيين وهم يودعون ويزقّون شيرين إلى مثواها الأخير، ليشكّلوا لوحة بهيجة في وقت أظلمت عليهم الدّنيا بفراقها، ليحمل جنازتها المسلمون قبل المسيحيين، ويشارك فيها أطراف أخرى من أديان ومذاهب، يحملونها في أكتافهم متحملين الضّرب من قبل بعض الشّرطة الإسرائيليّة وهم يخرجون من مستشفى القديس يوسف، رافضين أن تسقط بأيّ سبيل كان، وفي أيّ حالة كانت.

لقد انتفضت شيرين لانتفاضة عام 2000م، وها هو الشعب الفلسطينيّ اليوم يرد الجميل بعد اثنين وعشرين عاما، لينتفضوا لجنازتها، ويشاركوا إخوانهم المسيحيين في كنيسة البشارة للرّوم الكاثوليك في حارة النّصارى في القدس، فتقرع أجراس الكنيسة مرحبة بالجميع، وأنّهم جميعا أمّة واحدة، يجمعهم تراب وماهيّة وقضيّة واحدة، وكأنّ يسوع (عيسى) المسيح يستقبلهم، كما استقبل من قبلهم السّامريين ومن لحق به من الفريسيين والصّدوقيين والأسينيين ومن الأغيار، فجعلهم أمّة واحدة، معلنا: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السّلام، وبالنّاس المسرة" [لوقا: الإصحاح 2/ آية 14].

لقد عاشت شيرين لفلسطين، ولم تفرق بين رام الله وغزّة، فرثتها فتح وحماس، وكأنتها روح واحدة بين أخوين لجسد واحد، فأكرمتها رام الله بجنازة عسكريّة مهيبّة، حضرها رئيس منظمة التّحرير الفلسطينيّة محمود عبّاس، كما أدانت حماس هذه الجريمة، واعتبرتها شهيدة الكلمة الحرّة، بجانب تضامنت وأدانت جميع الجهات الفلسطينيّة، اليساريّة واليمينيّة معا، حيث وحدت شيرين جميع الفصائل والأحزاب الفلسطينيّة؛ لأنّ رسالتها كانت واحدة، هي التّراب الفلسطينيّ الذي يسع الجميع.

هذه الرّسالة الواحدة تجسّدت في جيل فلسطين الحاليّ، وهم آلاف من الفتيان والفتيات، متحملين معاناة الحواجز الأمنيّة الإسرائيليّة، والتي حاولت منعهم من المشاركة، هؤلاء الفتيان جمعهم روح واحدة، ليشيّعوا شيرين إلى عالمها الآخر في مقبرة جبل صهيون بالخليل في القدس، لتودعهم وهي في قبرها مرسلّة لهم أنّ القوّة في الوحدة، والتّنوع حالة

طَبِيعِيَّةٌ وَصَحِيَّةٌ لِأَنَّهُ مِنْ مَشْكَاءِ وَاحِدَةٍ، وَتَرابٍ وَاحِدٍ، {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه/ 55].

عاشت شيرين أبو عاقلة في بيوتنا عشرين عاما، فلم نلتفت إلى دينها ولم تلتفتنا إليه؛ لأنها عاشت بيننا بإنسانيتها وقضيتها، فلم يهمننا يوما دينها ومسلكتها؛ لأنَّ الإنسانِيَّةَ تسع الجميع، والبشر جميعا أبناء بيت واحد، ما يضرُّ بعضهم يضرُّ الجميع، وما يسعد بعضهم يبهج الكلَّ، ومن قتل نفسا بغير حقِّ فكأنَّما قتل البشر جميعا، ومن أحيا نفسا أمنا وتعلِيما وحرِيَّةَ فكأنَّما أحيا النَّاسَ جميعا.

هذه الرَّحمةُ وسعت النَّاسَ جميعا، بفطرتهم وماهيَّتهم الإنسانِيَّةَ الواسعةَ، فقتلت شيرين، فتعاطف لإنسانِيَّتِها الجميع، فلم يعنهم دينها ولا مذهبها ولا توجهها، بقدر ما كان يعنهم إنسانِيَّتِها، وما قدَّمته من نضال، ولإدراكهم رحمة الله وعدله الَّذي لا يظلم أحدا، فسبحان من خلق، وسبحان مطلق العدل والرَّحمة، ولا يظلم ربُّك أحدا.

الأديان وقتل الآخر

إنّ الأديان في جوهرها وروحها لم تدعو يوما إلى قتل المختلف واضطهاده وإقصائه، ولكنّها تحوي من النصوص لو قرأت في ظاهرها، ووقف الناس عند حرفيّتها؛ لتحوّل العالم إلى قرية واحدة لا يتعايشون فيها؛ بل إلى قرية تسيل فيها الدماء، وكلُّ يقتل أخاه باسم الدين نفسه، ولما زرت مؤسّسة التعاطف والتّعايش Compassionate DFW في دالاس بأمریکا، والتقيت بصاحبها الطّبيب تشالرز باركير، وكان مسيحيًا بروتستانتيًا، فأسّس هذه المؤسّسة لهدف أنّه "علينا بشكل عام أو خاصّ أن نشعر بالآلم الآخرين، ونبحث عن هذه الآلام لنقدّم الحلول، ونبتعد عن الأنانيّة، فالكثير من البشر محرومون من أقلّ حقوقهم الإنسانيّة، فعلينا أن نساعدهم، وأن نسعى في خدمتهم ولو كان معاديا لنا، لقد خسرت معركة مواجهة الكراهيّة، فقد شاعت بين البشريّة، ولكن علينا أن لا نياس، بل نواصل الطّريق في مواجهتها، ليحلّ محلّها المحبّة والتّعايش والسّلام"⁵³.

بيد أنّه وجد في النصوص الدّينيّة، خصوصا العهد القديم من الكتاب المقدّس من نصوص "كانت سببا في الكراهيّة والصّراع بين البشر، ومع هذا الأديان أيضا حملت فكرة السّلام والمحبّة، وعليه التّصوص القديمة في هذه الأديان إمّا أنّها نصوص تدعو إلى الصّراع والكراهيّة، وإمّا نصوص تدعو إلى المحبّة والسّلام، فنصوص الصّراع والكراهيّة جاءت لزمانها، ولا علاقة لها بزماننا، بينما نصوص المحبّة والسّلام هي التي تفيدنا في زماننا، فنتعامل مع هذه الأديان وتعاليمها بشكل إيجابي فيما يخدم البشريّة".

وإذا كان العهد القديم مليئا بنصوص قتل الآخر، حتّى الأطفال والنّساء، إلا أننا نجد في العهد الجديد: "لا تظنّوا أنّي جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيّفا" [إنجيل متى، الإصحاح: 10، آية: 34]، وفي القرآن الكريم: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التّوبة: 5]، وهذه الكتب الثلاثة هي المكوّن للعقل الجمعيّ للأديان الأربعة في هذه المنطقة المليئة بالمآسي، وهي السّامريّة واليهوديّة

والمسيحية والإسلام، لهذا يجب أن ندرك "أن هذه آيات إجرائية، والآيات الإجرائية ظرفية متعلقة بالزمكانية، وليست آيات مطلقة، فهي محكومة بالقيم التي دلت عليها النصوص ذاتها؛ لأن القيم مطلقة، ومرتبطة بالماهية الإنسانية، وسابقة عن التشريعات الإجرائية، فهذه مثلا تقرأ في سياقات الاعتداء، فهي حالة طبيعية في التعامل البشري، وإلا الأصل كما جاء في إنجيل متى نفسه: "وسمعتم أنه قيل تحب قريبك، وتبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعدائكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطهدونكم" [الإصحاح: 5، آية: 43 - 44]، وفي القرآن نفسه: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190]، {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال: 61]."

هل الله فعلا يأمر بالحروب وقتل الإنسان؟

هل الله فعلا يأمر بالحروب؟ وهل الشرائع جاءت لخلق ثنائيات غيبية يتصارع البشر حولها، وإذا كان السؤال الفلسفي الجدلي المستمر: هل الأصل الكائن البشري كائن حيواني انطبع على الصراع كحيوان الغابة، والبقاء للأقوى، أم أن الكائن البشري ترقى إلى القدرة على التعايش مع الآخر، وتطبع بذلك وفق رقيته من الإنسان غير العاقل إلى الإنسان العاقل، أو من البشرية إلى الإنسانية.

الأمر ذاته في الأديان، خصوصا الإبراهيمية (اليهودية والمسيحية والإسلام)؛ حيث غالب الصراع في العالم اليوم يمارس باسمها، قل ما نجد ما يمارس باسم أديان أخرى إلا ما تحاول خلقه السياسة، ولا يشكّل ظاهرة أفقية واضحة، كما ظهر مؤخرا عند حزب بهاراتيا جاناتا في الهند في الفيدية (الهندوس)، والذي تزعمه حاليا رئيس الوزراء الهندي مودي، والذي يلقي معارضة من الاتجاهات الفيدية ذاتها، والتي تنادي بالتّرقى في السّلم والتّعايش مع الآخر، الأمر ذاته عند البوذية لا نجد تلك الحدة مع المختلف، فهو يتعارض مع النيرفانا القائمة على التّرقى، ومنه التّرقى في حبّ الخير لأيّ نسمة بشرية، وإن حاولت من السياسات البوذية خلقها إلا أنّها ما تتصادم مع المبادئ البوذية ذاتها.

لما تقرأ سفر يشوع وهو أول سفر من الأسفار التّاريخية في التّنّاخ (العهد القديم) نجد هذا النّصّ (وقتلوا بحدّ السّيف إكراما للرّبّ جميع ما في المدينة من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وشيوخٍ، حتّى البقر والغنم والحَمير) [6: 21]، (وغنم بنو إسرائيل لأنفسهم كلّ بهائم تلك المدن وغنائمها، وأمّا النّاس فضرّبوهم جميعا بحدّ السّيف حتّى أفنّوهم، لم يُبقوا نسمة) [11: 14]. مثل هذا النّصّ خلق جدلا عند اللاهوتيين المسيحيين بين المبالغة في تأويله، أو الإقرار بتأريخيته أي رقيّ الاجتماع البشريّ، فهو يتعارض مع وصايا الإنجيل ذاته.

بيد أنّ المتأمل في اليمينية الصّهيونية المعاصرة نجدها تمارس مضامين مثل هذه النّصوص، ومع تنامي وتمدّد اليمين المتطرّف أصبح الآخر المختلف عنهم لا قيمة وجودية له، فضلا أن تكون له قيمة إنسانية، نجد مصاديق هذا في الدّماء التي يبيحونها بكلّ سهولة منذ

أكثر من ثمانين عاما خلت، لا يقتصر عند الاغتيالات والإعدامات، بل عند حركة الإبادة بشكل أوسع ممّا صورته سفر يشوع، وبشكل متكرّر، وأمام دعم ومرأى من العالم.

حاولت المذاهب المسيحية التقليدية تمثلا في الأرثوذكس والكاثوليك ضبط التقليد في التعامل مع العهد القديم، وبعيدا عن الحروب السابقة والتي مارسها الكاثوليك مثلا باسم الصليب، وهي أقرب إلى التوسع التبشيري والاقتصادي منه الخلاصي، إلا أنّ البروتستانتية الكالفينية خصوصا، وإن بدأت بتفسيرات المحبة بين البشر، وانفكت عن التقليد الأرثوذكسي (التقليدي)، بيد أنّها مع مرور الأيام خرج منها ظاهريون في التعامل مع النص المقدس، ومنهم من تبنى شيئا من الشريعة اليهودية القديمة كالأدفنتست السبتيين، وانبثق منهم شهود يهوه.

ارتبط الإنجيليون المتعصبون الجدد بالسياسات الأمريكية تمثلا في حزبه الجمهوري خصوصا، ومن هؤلاء ولدت فكرة التّعجيل بالدولة اليهودية تعجيلا بالمجيء الثاني للمسيح، وهذا لا يتحقق إلا بعودة اليهود، وهو مبشر بقيام المعركة الفاصلة أي هرمجدون، وقبلها كما في سفر الرؤيا من العهد الجديد (فإنهم أرواح شياطين صانعة آيات تخرج على ملوك العالم وكلّ المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم يوم الله القادر على كلّ شيء) [16:14]، (فجمعهم إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هَرْمَجْدُون) [16:14].

وربطت بعض الحركات الإسلامية لاهوتيا هذا بما جاء في مقدمة سورة الإسراء [4-6]:
{وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلْلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا}، فالمجيء الأول ربط بالسبي البابلي، أو بتدمير الهيكل سنة 70 على يد الرومان، وما يحدث اليوم في فلسطين هو نبوءة بالمجيء الثاني، واستندوا إلى رواية: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله".

كما ارتبط هذا بنظرية عودة المخلص (المسيح أو المهدي)، هذه العودة لا تكون طبيعية، بل مرتبطة بالفساد وكثرة الحروب والدماء، "ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"، فهي في نظري

قائمة على المواجهة مع المسيح الدجال والسفاني الخارج من الشام في بعض الروايات، حتى علق في بعض الخطابات اللاهوتية أن كثرة المهرج والمرج، والفساد في الأرض، وانتشار القتل والفوضى؛ هو معجل بظهور المخلص، أيًا كانت صورته في عموم الأديان الإبراهيمية.

لا أريد ربط الحرب الأخيرة (الأمريكية الإسرائيلية - الإيرانية) بحرفية هذا التشكل الغيبي، لكنها أيضا في رؤيتها وخطابها لا تخرج عنه، فبنيامين نتنياهو اعتبر الحرب الأخيرة هي حرب على العماليق، (فاذهب الآن واضرب بني عماليق، وأهلك جميع ما لهم ولا تعف عنهم، بل اقتل الرجال والنساء والأطفال والرضع والبقر والغنم والجمال والحمير" [صموئيل الأول 15: 3]، الأمر ذاته مع ترامب، رغم أنه حذر من استخدام المصطلحات الدينية لتعارض ذلك مع السياسات الأمريكية لكن الصورة شبه واضحة في بعض التعابير المستخدمة.

وأما في السياسة الإيرانية فالمرشد هو النائب (التيابة الكبرى) عن الإمام المعصوم (أي المهدي)، وينوب عنه في إقامة الحجّة، وسياسة الرعيّة، والإمام الحجّة هو اختيار الله وخليفته في الأرض، وهو حيّ يرزق، ينوب عنه الفقيه حاليا حتى موعد ظهوره، وحسب نظرية ولاية الفقيه أن المرشد الأعلى لإيران هو النائب عن الحجّة، وتجب طاعته والانضمام تحت ولايته، ولهذا جاء في مفتح أول خطاب للمرشد الثالث مجتبي خامنئي: "السّلام عليك يا داعي الله وربّاني آياته، السّلام عليك يا باب الله وديان دينه، السّلام عليك يا خليفة الله وناصر حقّه، السّلام عليك يا حجّة الله ودليل إرادته؛ السّلام عليك أيّها المقدّم المأمول؛ السّلام عليك بجوامع السّلام؛ السّلام عليك يا مولاي صاحب الزّمان"، وعزّاه ابتداء باستشهاد أبيه أي عليّ خامنئي.

عندما يُقتل الجمال

الإنسان بفطرته عاشق للجمال، سمعا وبصرا وتذوقا وشما ولمسا، وهذه طبيعة سويّة في الإنسان، ولهذا الوجود تناسق مع الجمال، من صحراء وسهول وبحار وأنهار وواحات، وتجلّى مصدر الجمال الوجوديّ في الإنسان، فهو صورة الوجود من تناسق وتماهي معه، ثمّ تجلّى الوجود الأصغر أي الإنسان، والوجود الأكبر أي الكون في الأطفال، فهم نفحة الله في الوجود، وبراءة الحياة في التّناسق والجمال، وهم مرآة لجمال الكون، وانعكاس لجمال الإنسان.

جمال الأطفال نَفْسُ الحياة، فبقرهم تهدأ النفوس، وتطمئن الأبدان، وبشغهم وصراخهم ولعبهم وحركتهم نعلم أنّ في الكون حياة، فأبّ عقل سوي يقتل هذا الجمال، وأيّ دين إلهي يبيح لهم ذلك، وأيّ منهج سياسيّ أو إعلاميّ أو دوليّ يبرّر لهم ذلك أيضا.

ما حدث ويحدث لأطفال فلسطين لا تتقبله نفس سويّة، ولا تبرّره فطرة إنسانيّة، أطفال يلعبون ويمرحون، يرون القتل والدّمار من أمامهم وخلفهم، وأصوات رشاشات الفناء لا يفارق مسامعهم، حرموا من حنان الطّفولة، ومن سكينّة الأبوة، فما بقي لهم في الكون إلاّ اللّعب مع من نجا معهم، ومع هذا في عشية وضحاها يحرمون منه، وليتهم حرموا من اللّعب، بل حرموا من حقّ الحياة كباقي البشر.

أيّ جرم إنسانيّ هذا، صورة واحدة تكفي لتحرك العالم لوقف هذا الهديان، فكيف بآلاف الصّور والمشاهد المرعبة، والتي لا يتحملها قلب الإنسان، لتكون شاهدة للأجيال القادمة أنّ العالم اليوم، وفي هذه اللّحظة التّاريخيّة، والتي شاء القدر أن نكون جزءا منها، قد قام بقتل هذا الجمال، والعالم جميعه سياسيا ما بين تأييد وسكون وتبرير، وما بين استنكار وبيان وتنديد خجول، ولكن مسرحيّة القتل لا تتوقف، ومسيرة البطش تسرح كما تشاء، وتفعل ما تشاء.

{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}، هي نفس واحدة تسأل العالم أجمع، بأيّ ذنب اقترفته لتقل، وليحكم عليها بالفناء، هل حملت سلاحا، أو أحدثت إرهابا، فلماذا تجوّع وتحرم من حقّ الطّفولة، ثمّ لماذا يكون مصيرها التّشويه الجسديّ والفناء.

هذه الدّول الكبرى، والتي بسلاحها يقتل آلاف الأطفال في غزّة اليوم، ألم تتحدّث بالأمس عن حقّ الطّفولة، وألم تضع قوانين في ذلك، وتحاسب الدّول المنتهكة لحقوق الطّفولة

والمقصرة فيه، واليوم بسلاحها ومالها وبحقّ الفيتو هي لا تنتهك هذه الحقّ فحسب، بل تقتل هذا الحقّ وترفعه من الوجود.

طفل واحد تزهق روحه بغير حقّ، أو يحرم من طفولته بلا جرم، يكفي أن يستنفر العالم لذلك، فكيف بمئات الأطفال ما بين مشوّه ومقطعة أجساده، وما بين جريح ومقتول أمام مرأى ومسمع من العالم، فإن كان الخبر كاذبا، فالصّورة لا تكذب.

إنّ القتل النّفسيّ، والحرمان الأسريّ، والذي سيعانيه فلسطين ممّن نجا منهم، هو أيضا لا يقل خطورة، وسيبقى في ذاكرة هؤلاء طول حياتهم، حتّى يولد من أصلابهم جيل آخر يعيشون لحظة تاريخيّة أخرى، لا علاقة لها بهذه اللّحظة التّاريخيّة السّوداء التي نعيشها الآن.

ما يحدث في فلسطين ليس قضاء على الإرهاب كما يدّعون، وليس دفاعا عن النّفس، وليس حربا على الاعتداء؛ بل هي عبثيّة بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، ففي كلّ مرة يقتلون الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيين بلا ذنب، وليست حالة واحدة أو أخرى، وليس في لحظة تاريخيّة وزمنيّة واحدة، فمنذ 1948م وحتّى اليوم، تتكرّر في كلّ عام مرة أو مرتين ثمّ لا يتوقفون، ومنهم خلفهم دول كبرى لهم يدعمون ويبررون ويصفقون، فأيّ عبثيّة هذه في حقّ الوجود والجمال والإنسان.

حدّثنا التّاريخ عن حالات تحدث في ظرفيّتها مع سواتها، لكنّه لم يحدّثنا عن إبادة لهذا الجمال لما يقرب قرن من الزّمان، فأيّ دين يبيح هذا، وأيّ قانون يبرر لهم ذلك، وأيّ فطرة وعقل يتقبله، فلا بدّ أن يتوقف هذا العبث بالجمال والإنسان والطفولة، والتي خلقت حرّة لا ذنب لها، ولا علاقة لها بدين أو بلد أو حركات جهاديّة أو غيرها، فبأيّ ذنب تحرم من حقّ الحياة والتّمتع بها كباقي أطفال العالم؟!!!

إنّ الجبان هو من يظهر شجاعته على الضّعيف، والقوي هو من يحمي الضّعيف، فما نراه الآن في غرّة هو دليل ضعف لا قوّة، ودليل هزيمة لا انتصار، ثمّ لهو دليل أنّ العدو فاقد للسيطرة على الأمور، وغير قادر على الاتّزان، وعلى المواجهة الحقيقيّة.

يجب أن تتوقف هذه العبثيّة بحقّ الجمال والإنسان اللّحظة قبل الغد، ولا بدّ أن يكون العالم صفا واحدا في ردع كلّ من يعبث بذلك، أو يبرر ذلك، وعلى هيئات حقوق الإنسان،

والأحرار في العالم التّحرك والضّغط السّريع في ذلك، وإلّا فهناك مجازر أخرى سيجدون ما يبرّرها.

لابدّ أن نفرق بين المبادئ وتصرفات السّاسة، فهذه المبادئ الإنسانيّة الدّاعية إلى حماية الجمال والإنسان والطفولة، والتي ناضل لأجلها الفكر الإنسانيّ، واجتمع عليها الدّين والفلسفة، وخلصت إلى وثيقة حقوقيّة إنسانيّة واحدة، لا ينبغي أن يخلط بينها وبين عبثيّة السّاسة والعسكريين، ومن يبرّر لهم من الأخبار ورجال الدّين والثّقافة، فعلينا أن نجتمع جميعا، وأن نحمي هذه المبادئ الإنسانيّة والحقوقيّة لعالم أفضل لجميع أبناء وأطفال العالم بلا تفریق بينهم.

إنّ النّفس البشريّة واحدة، وأطفال فلسطين وشيوخها ونساءها لا تفترق بحال عن أيّ نفس في العالم أجمع، ولا يمكن لأيّ رجل دين أو كاتب أو إعلامي أو مثقف أو شاعر أو فنّان أن يبرّر هذه العبثيّة غير الإنسانيّة التي تحدث بحق الإنسان عموما، وبحقّ الأطفال خصوصا، وإلّا كان مشاركا في هذا الجرم النّاتج عن هذه العبثيّة.

إنني أرجو أن أفارق الحياة وأرى أطفال فلسطين كغيرهم من أطفال العالم، يلعبون ويلهون ويمرحون في بلدتهم آمنين مطمئنين، بين أهاليهم وأسرتهم، يذهبون إلى مدارسهم صباحا كغيرهم، ويشاكسون بعضهم مساء كأيّ طفل في العالم، وهذا ما أرجوه لأطفال العالم جميعا، فهناك أيضا عبثيّة الفقر والجهل والحرمان من حقوق التّمتع بالطفولة والحياة في أجزاء كبيرة من العالم، فعلينا أن نجتمع في حماية هذا الجمال، وإلّا فطبيعيّ أن ينقلبوا على العالم مستقبلا، لأنّه غرسنا في طفولتهم التّمييز والكرهية والحرمان، فما بالك بأطفال حرّموا حتّى من حقّ الأمومة والأبوة التي فطروا عليها، فبأيّ سلام وجمال نتحدّث معهم مستقلا، ونحن من ساهمنا في حرمانهم منها، وسكتنا عن هذه الحروب العبثيّة بحق الجمال والإنسان والطفولة!!!

يشجّعون الحروب من بيوتهم الأمانة

من السّهولة بمكان اليوم أن تكون مناضلا بتغريدات متتالية، أو مقالات متتابعة، أو مقاطع مرئية متسلسلة، تسترقّ السّمع من هنا وهناك، فتثير شعوبا على الحروب غير المدروسة، ليكون ضحيتها أطفال ونساء وأبرياء لا ذنب لهم. إنّ الحرب لا تعرف منتصرا فيها، الكلّ خاسر على المستوى القريب والبعيد، والإقبال إليها إمّا عن طريق سياسيّ متهور يدخل أمة في نفق مظلم، ويرجع مجتمعه ودولته إلى الوراء سنين طوال، أو يجبر إليها أمة لا ذنب لهم، فيدافعون لأجل وجودهم وحرّيتهم.

إنّ الدّفاع عن هذه الأمة التي لا ذنب لها مطلب إنسانيّ عظيم، فأيّ أمة يُعتدى عليها لا يجوز الدّفاع عن المعتدي، والسّلم لا يجتمع مع الظّلم، وإذا كان الجحجح إلى السّلم مطلب إنسانيّ رفيع، إلّا أنّه لا يتحقّق إلّا برفع الظّلم، وتحقيق المساواة والعدالة وفق الدّات الإنسانيّة الواحدة، وهناك فارق كبير بين من يدعو إلى رفع الظّلم عن أمة أو دولة لاعتبار انتماء معيّن وقعت فيه أمة يشترك معها في الانتماء كعرق أو دين أو لغة أو ثقافة، وبين من يدعو إلى رفع الظّلم عن أمة أو دولة باعتبار مشترك كرامة الدّات الواحدة، هنا ينظر إلى الوجود الإنسانيّ أنّها ذات واحدة، فيكون قلبه مليئا بالرحمة لهذا الوجود، يسعد بتحقيق السّلم عالميا لما يترتب عليه من سعادة الوجود الإنسانيّ ذاته.

مثل هذا إذا حدثت كوارث طبيعيّة كحريق أو زلزال أو إعصار في دولة ما لا تشترك معه في الدّين والثّقافة فيفرح بذلك، ويكون ناطقا عن الله وحاكما عنه في اعتباره من العذاب الإلهيّ؛ هذه الكوارث الطّبيعيّة، أو حتّى البشريّة كالحروب الأهليّة؛ يكون ضحيتها - في الغالب - من الأبرياء، كالأطفال والنّساء والشّيوخ والعجزة، فضلا عن الحيوانات وغيرها، فلا أدري، أيّ قلب يسع أن يفرح إنسان لما يحلّ في أخيه الإنسان من بلاء وكوارث، بينما يعتبره ابتلاء إذا اشترك معه في بعض الانتماءات، ويضيق عندما يكون التّحدّث باسم الله أو الغيب، فيسقط نصوصا في أمة بعيدا عن العدل والرحمة الإلهيّة.

عندما يتحدّث الإنسان باسم الرحمة الإلهيّة يجد العالم واسعا رحبا، فالله ربّ العالمين، وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين، حيث الدّات الإنسانيّة الواحدة مرتبطة بهذه الكرامة

الآدمية، والرّحمة المطلقة، وما ينبني عليهما من مساواة وعدالة، هنا يجد البشر وشعوب العالم واحدة في حقّها في السّلم العالميّ، وفي المشترك الإنسانيّ، فيما يتعلّق بحقّ الحياة، وحقّ التّمتع المتساوي بما فيها من خيرات ونعيم، فلا تظهر في نبرته في هذا أيّ تباينات انتمائية، فيدافع عن الإنسان كإنسان. من المؤسف حقًا أن يبرّر القتل في غزّة لأتّهم إخوان مسلمون، أو في إيران لأتّهم شيعة، أو في بورما لأتّهم بوذيون، أو بلد آخر لأتّهم ليسوا مسلمين. إننا بحاجة اليوم إلى بناء أجيال تنشأ على مطلق الرّحمة للذّات الإنسانية، خصوصاً والعالم أصبح لا يحتمل هذه الثنائيات المؤثرة في العيش الإنسانيّ المشترك.

إنّ السّلم والعيش المشترك هو الأصل بين البشر جميعاً، في أرض تسع الكلّ، وأنّ الحروب والعداوة والصّراع أمراض يصنعها البشر طيلة التّاريخ، لها أسبابها وسياساتها التّاريخية المغلقة، والشّهوانية المعاصرة، والسياسية المتهورة، فإذا كان كذلك من تهور أحفاد قابيل، فهذا ينبغي أن يواجه بتعقّل هابيل. هناك من السّياسيين من يصنع الحروب، وهؤلاء السّياسيون ينتمون إلى انتماءات مختلفة ومتباينة، فلا ينبغي أن يجرّم من ينتمي إليها لأنّ من السّياسيين من يلبس لباسها، فخطاب التّعميم قد لا يقصده العديد من أصحاب المقالات والتّغريدات، لكنّ العقل الجمعيّ يكون أحياناً ضحيّة لمثل هذه المنشورات العامّة وغير المنضبطة، لاحظنا أثره السّلبّيّ مثلاً في لبنان وسوريا والعراق، وهناك من يحاول إثارته في الهند ونيبال أيضاً.

إنّ التّعقّل في مواجهة الحروب والعداوة والصّراع لا ينتج عن انطباعات أو عواطف يثيرها بعضهم وهم آمنون في بيوتهم، مطمئنون في ديارهم، بعضهم لو قطع الكهرياء والماء عنه نصف يوم لثار غضباً، ولو أنقص من راتبه شيء هيج ممّن حوله. ليس من السّهل أن يشرّد الآلاف، أو يقتل المئات، أو ترمل النّساء، ويهتم الأطفال، وهناك من يثيرها لتشتعل وتتمدّد بصورة أكبر، وكأنّها كرة قدم، وليست حرباً لا ترحم أحداً. إنّ التّأني والتّعقّل هي رأس الحكمة، ومن يدعو إلى السّلم ليس كمن يدعو إلى الحرب، ومن يسع في إطفاء الحروب ليس كمن يناضل في إشعالها، ومن ينادي بحرمة الذّات الإنسانية ليس كمن يسعى في تقسيمهم وإثارة التّعرات والصّراع بينهم.

ما أسلفت ذكره لا يعني الدّعوة إلى تهوين ما يحدث في عالمنا العربيّ خصوصاً من بلاء ودمار في أجزائه، ووجود ذلك لا يعني أيضاً أن نكون رهين الواقع لنكون أداة لفساد ودمار باقي أجزائه الأخرى، علينا ابتداءً أن نتحرّر من أنانيّة الانتماءات والأثنيّات، علينا أن نكون يداً واحدة في إطفاء الحروب في اليمن والسّودان وليبيا وغازة وغيرها، وأن نكون يداً واحدة في إحياءها جميعاً بالتّمنّيّة والعلم والمعرفة والتّهضة بكلّ معانيها، هذه الرّوح لا تنطلق من ذات العروبة بقدر ما تنطلق من ذات الإنسان، فإذا تهذّبت الخطابات الفكرية والدينيّة والثّقافيّة، وتحرّرت من ضيق خطابات الانتماء، إلى سعة الإنسان والوجود، سيؤثر ذلك في السّياسيين ومن يسانداهم، فكثيراً ما يتشبّهون بالانتماءات لتحقيق مطامعهم وتهورهم، ويستخدمون هذه الأوراق لتبرير إثارة الحروب وإشعالها، لا أقول ذلك كعاطفة وأحلام ورديّة، لكنّها – في نظري – رؤية قد تقودنا إلى شيء من العلاج، عندما نفكّر بروح الإنسان والسّلم والإحياء، وندرك الرّحمة في الدّات البشريّة، حينها نجد حسن ثمرة ذلك في القريب من الأقطار إلينا قبل البعيدة عنّا.

هل يلزم من جرائم الصّهيونية استعداد كلّ اليهود؟

الأصل الذي لا ينازع حوله اثنان على حرمة النّفس غير المعتدية، وحرية ممارسة الطّقوس المدنيّة والتّاريخيّة، ولا يحمّل المنتسبون إلى عرق أو دين أو وطن ما يفعله من اعتداءات ضدّ الإنسانيّة ممّن يشابههم في ذلك في أجزاء أخرى من العالم.

لابدّ من التّفريق بين المعتدي وغير المعتدي، والأصل السّلم بين البشر، وحرمة النّفس والعرض والمال، ولا يجوز إثارة الرّعب أو الخوف بين الأمنين بأيّ شكل من الأشكال، ولا بدّ من التّفريق بين الدّيانة والمنتسبين إليها، فوجود نصوص تدعو إلى التّطرّف في الأديان، ولا تقرّ هذه النّصوص في سياقها الظّرْفِيّ؛ لا يعني أنّ جميع المنتسبين إليها متطرّفون، فكلّ الأديان فيها نصوص تاريخيّة، ووقائع ظرفيّة، لها سياقاتها التّأويليّة والقيديّة، يفهم من ظاهرها التّطرّف، أو تستغلّ لإحداث تطرّف في وقائع متباينة، كما أنّ تطرّف بعض المنتسبين إليها لا يعمّ الكلّ، فكلّ حادثة تقرّ حسب وقائعها الظّرْفِيّة، بُعدا عن التّعميمات غير المنضبطة علميّا ومنهجياّ.

ما يحدث في فلسطين يجعل اليهود في وضع غير آمن في العالم، لهذا يظهر في سفرهم بجوازات وجنسيّات مختلفة، ولا يظهر ديانتهم وتهودهم، لما يرتبط به من قضيّة أخرى وهي الخطابات العموميّة غير المحكمة منطقا وعقلا، من قبل خطابات سياسيّة ودينيّة أقرب إلى التّعميم والخلط العشوائيّ، ممّا يجعل الصّورة سلبية في العقل الجمعيّ، ينتج عن ذلك سلوكيّات متطرّفة قد تصل إلى القتل واستخدام العنف في أجزاء من العالم، أو يتمّ استغلال هذه الخطابات الشّعبيّة من قبل جهات سياسيّة، أو منظمات حركيّة، لتحقيق أغراض سياسيّة تسعى إليها، ويسهل بها تجنيد بعض العقول الجمعيّة الفارغة، باسم الدّين أو المذهب أو الغيب بشكل عام.

نحن بحاجة اليوم إلى خطابات إنسانيّة محكمة، فما حدث في شاطئ بوندي مثلا لا علاقة للإسلام والمسلمين به، كما أنّ الذي حدث لليهود في الشّاطئ جريمة لا يمكن تبريرها، فالنّفس الإنسانيّة واحدة، هذا ذاته ما يحدث من جرائم في فلسطين ضدّ شعب أعزل لا يعمّ اليهود، ولا يعني جواز ممارسة العنف ضدّ اليهود لمجرد أنّهم ولدوا يهودا، فحقّ الحياة حقّ للجميع، ولباس الأديان لا ينزع أصل ذاتيّة الإنسان، فالعنف لا يعرف فكرا ولا دينا ولا مذهبا،

ولكن قد تستغل النصوص الدينيّة والتاريخيّة لتبرير هذا، فبقدر ما يعاد قراءة هذه النصوص بما يحفظ إنسانيّة الإنسان، الأمر ذاته علينا أن نقرأ الواقع بعقلانيّة بعيدا عن العموميّات الحكميّة المسبقة، أو الخطابات غير المتعقّلة.

تفكك البيت الفلسطيني

تفكك البيت الفلسطيني من أكبر الأسباب التي جرّت إلى النظرة الدونيّة لحالهم، فقوّة الذات توجب احترام الآخر، وتفكك البيت من الدّاخل يسهل اختراقه، بهذا ندرك اليوم تراجع القضية الفلسطينية في الحسّ العالميّ عموماً، والعربيّ والإسلاميّ خصوصاً، فلمّا كان البيت الفلسطينيّ متحدّاً في كلمته، مناضلاً في قضيتّه، لم تفرّقه التّوجهات اليمينيّة واليساريّة، وكانت الغاية التّحرير وإرجاع الحق؛ كان العالم على ضعف الإعلام حينها، يخرج مناصراً له، ثمّ لما ضعف وتفرّق بدأت بعض الحكومات العربيّة بالتّراجع على خجل، واليوم من يقرأ التّغريدات يجد أصواتاً تراجع، أو هتافات هنا وهناك تناصره لكنّها تخفت بعد أيام، وفي هذا درس للفلسطينيّ أنّ قوّته في ذاته ووحدته، وتقوية بيته معرفيّاً وماديّاً قبل غيره، واعتماده على الآخر ولو كان قريباً قد يتركه في أقرب فرصة، وقد يكون قربه لتحقيق أغراض سياسيّة أو طائفية لا أكثر، إلا أنّ العديد من الشّعوب لا زالت صادقة ووفية، ومدركة لأحقية الفلسطينيّ كإنسان في أرضه، وفي هذا فرصة للبيت الفلسطينيّ أن يراجع أوراقه من جديد، وأن يترك خلافاته جانبا رغم المأساة والمعاناة، وأن يستثمر أوراق النّصر لصالحه، وما يحدث من تطبيع علني في الحقيقة لصالحه هو، بدل الضّحك عليه في القمم والمؤتمرات، واستغلال قضيتّه لمصالح شعبيّة أو انتخابيّة أو ذاتيّة.

التّطبيع والصّحّ والهدنة والسّلام

معنى التّطبيع كما في البيان الصّادر عن مجلس رؤساء الكنائس الكاثوليكيّة في الأرض المقدّسة والذي نشره موقع Zenit هو: "إقامة علاقات مع دولة إسرائيل وأجهزتها ومواطنيها كما لو أنّ الوضع طبيعيًا، ويعني بالتّالي تجاهل حالة الحرب القائمة، والاحتلال والتّمييز العنصريّ، أو هي محاولة للتّعتيم على ذلك أو لتهميشه عن قصد"، وقد وضع البيان المعاناة التي يعانيها العربيّ المسلم والمسيحيّ والسّامريّ واليهوديّ في إسرائيل نفسها، "فكلّ المواطنين اليهود والعرب متساوون في الحقوق من حيث المبدأ؛ ولكن في الواقع هناك تمييز ضدّ المواطنين العرب وبطرق مختلفة، في التّنميّة والتّربيّة والوظائف، وفي تقديم الدّعم الماليّ للبلديات العربيّة"، وأمّا "في دولة فلسطين بالرّغم من وجود السّلطة الفلسطينيّة ما زال الفلسطينيون يعيشون حياتهم تحت احتلال عسكريّ، يشمل كلّ حياتهم اليوميّة، فهناك المستوطنات وبناء الطّرق، وشرعنة الأبنية الإسرائيليّة على أراض فلسطينيّة خاصّة، والمداهمات المتكررة للبيوت، والاعتقالات، والاعتقالات التّعسفيّة، والعقاب الجماعيّ، ومصادرة الأراضي، وهدم البيوت، والحواجز العسكريّة التي تحدّ من حرّية الحركة، وتضع العديد من العقبات أمام النّمو الاقتصاديّ، ومنع لم شمل العائلات، الذي هو امتهان لحق طبيعيّ لأعضاء العائلة"، لهذا يرى البيان أنّ حياة الفلسطينيين في المجتمعين الفلسطينيّ والإسرائيليّ "بعيدة كلّ البعد في أن تكون حياة طبيعيّة، ومن ثمّ التّصرف كأنّ الأمور في حالة طبيعيّة هو تجاهل وامتهان لحقوق الإنسان الأساسيّة"، لهذا التّطبيع هو جريمة في حقّ الإنسان أيّا كان دينه وتوجهه، وإقرار بهذا الظلم على الحياة الطّبيعيّة للإنسان.

وأما الصّحّ فهو "إنهاء الخصومة"، أو وقف النّزاع يتبعه قانون ومواثيق تحمي الطّرفين، حيث يؤدي إلى التّصالح بين الطّرفين وفق منافع مؤكدة للفريقين، والهدنة قريبة من الصّحّ، أو هي نوع منه إلا أنّها وقف النّزاع على ما هو عليه، والمهادنة تسمى قديما المصالحة، وتعرّف فقها "بمصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدّة معينة بعوض أو غيره"، فالهدنة تأتي بمعنى الصّحّ، وتأتي بمعنى أخصّ له، وتأتي كنوع له، وهذا يدخل في مفهوم السّلم أو السّلام الجزئيّ، لا السّلام الشّامل.

لهذا لا توجد علاقة أو تشابه بين التّطبيع والصّحّ أو السّلام، فبينهما فرق كبير، ثمّ إنّ الصّحّ يكون مع طرف له كامل حقوقه الإنسانيّة وهذا كما رأينا شبه منعدم مع الإنسان الفلسطينيّ، كذلك إن كان ثمة صلح أو هدنة أو سلام يكون بحضور الطّرفين، وبتحقق الشّروط المتفق عليها، أمّا أن يغيب الطّرف الفلسطينيّ كليًا من المشهد، أو يملأ عليه، أو يهملش؛ فهذا لا قيمة له، ومن يحدّد ذلك زمنًا وشروطًا فلسطينيون؛ لأنّهم المعنيّ بالأمر، وفي حالة انعدام ذلك يكون إمّا لوجود طرف آخر قوي ولن يكون بالشّريطة همّه الجانب الفلسطينيّ، بيد - كما أسلفت - قوّة الفلسطينيين داخليًا تجعل وجودهم وقراراتهم وتأثيرهم قويًا خارجيًا.

هل كان العرب صادقين مع إسرائيل؟

لقد كانت نيّة دول العالم العربيّ صادقة تجاه إسرائيل عقوداً من الزمن، من كامب ديفيد وحتىّ اليوم، على أن تكون لفلسطين دولة مستقلة على حدود 1967م عاصمتها القدس الشرقيّة، فأسهبوا في ذلك البيانات واللقاءات، وأنفق في تحقيق ذلك الأموال والأوقات، إلا أنّ إسرائيل تماطل وتلعب بالأوراق، ولم تكن رغبتها ذلك، بل حتّى مناطق الضفّة الغربيّة وفق اتّفاقية أوسلو الثّانية 1995م، والتي تشكل مناطق السّلطة الفلسطينيّة.

إنّ الإنسان الفلسطينيّ ليس نشازاً عن باقي البشر، لقد سئم من الفرقة والتّشريد، والحصار والتّجويع، والاعتقال والحبس، حتّى حدود ما بعد نكسة 1967م، والتي سميت بحلّ الدّولتين، لقد ظلم هذا الشّعب بإعطائه أقلّ من الثلث من حدود بلده، ومع هذا الثلث فقد قسّم إلى مناطق (أ) و(ب) و(ج) بعد اتفاق أوسلو الثّاني 1995م، والسّلطة الفلسطينيّة الحاكمة ليس لها من أمر السّيّطرة الأمنيّة والمدنيّة الكاملة عدا ثلاثة بالمائة فقط، بينما لإسرائيل اثنان وسبعون بالمائة من السّيّطرة الأمنيّة والمدنيّة، والمتبقي مدنيّاً للفلسطينيّين من حيث السّيّطرة، بينما أمنيّاً لإسرائيل.

إنّ لغة القوّة التي تستخدمها إسرائيل ضدّ شعب محاصر وأعزل لن يزيد هذا الشّعب إلاّ قوّة، فلكلّ شيء ردّة فعل، على أنّ قوّة الدّأكرة والإرادة أقوى من قوّة السّلاح، فلن ينسى الفلسطينيون ما فعل في آبائهم وأمّهاتهم وأبنائهم، وما سلب من أراضيتهم، وأخذ من حقوقهم، كما لن تنسى ذلك الأجيال القادمة، وهذه الدّأكرة الأليمة بجراحاتها وآلامها هي أكبر داعم للإرادة، والتي ستخلق من المستحيل شيئاً واقعاً.

واليوم وبعد هذه العقود أصبح العالم مدركاً لهذه الحقيقة، ليس على مستوى العالمين الإسلاميّ والعربيّ فحسب؛ بل على مستوى العالم أجمع، وإنّ قيام دولة فلسطينيّة مستقلة إداريّاً وأمنيّاً، ولو على حدود 1967م؛ هي حالة من الأمان والوهم، لهذا لا بدّ أيضاً من قوّة أرادة سياسيّة دوليّة وإسلاميّة وعربيّة تحمي هذا الشّعب المستضعف والأعزل، وترجع له حقوقه الإنسانيّة كأيّ شعب في العالم، وتحميه من حركات البطش والإبادة والدّمار والتّجويع والتّشريد، في حالة غير إنسانيّة، وغير أخلاقيّة لا تتناسب وتطوّر المجتمع الإنسانيّ.

إننا كأمة عربيّة نكرّر ذات الخطاب والبيانات، ويتكرّر علينا ذات السيناريو أو المشهد
عاما بعد عام، ونكتفي بالشّجب والاستنكار، ومنهم من يستغل هذه المواقف لمأربه السّياسيّة
والأيديولوجيّة، ونحن كشعوب نعذر في هذا، ولكن لا بدّ من إرادة وقوّة عربيّة خصوصا، وإسلاميّة
عموما، تدفع بالعالم الإنسانيّ والدّوليّ في حماية الشّعب الفلسطينيّ، وإعطائه حقوقه
المشروعة.

أنا ضدّ قتل الأبرياء الذين لا ذنب لهم من الجانبين، خصوصا من الأطفال والنّساء
والمغرر بهم، إلّا أننا ندرك أيضا أنّ الإنسان الفلسطينيّ كغيره من البشر، له كرامته ومكانته في
وطنه وخارج وطنه، ومن حقّه الإنسانيّ الحفاظ عليه، وتحقيق حرّيّته وكرامته ومكانته داخل
بلده، ونضاله لتحقيق ذلك ليس إرهابا ولا نشازا وتطرّفا، بل هو طبيعة إنسانيّة ترفض الدّلة
والاستبداد والصّغار، وهو كما ابتدأت الحالة الطّبيعيّة للمعاناة التي يعانها ردحا من الزّمن
بسبب التّجويع والحصار والاستبداد، بل ومن البطش والقتل والسّجن والحرمان.

القضية الفلسطينية بين الحكومات العربية وشعوبها

القضية الفلسطينية وجدلية الحكومات والجماهير جدلية قديمة، تارة تتحد وتارات تتمايز وتتباعد، وتارة يظهر صوت خطابي يوحد كما حدث عند جمال عبد الناصر (ت: 1970م)، وبعده لم يظهر ذلك الصوت الذي وحد الجميع شرقا وغربا، في خطاب عروبي موحد، فقد ظهر مفرقا بشكل خافت لاحقا مع الملك فيصل بن عبد العزيز (ت: 1975م) وأنور السادات (ت: 1981م) في حرب أكتوبر 1973م قبل كامب ديفيد 1976م التي ألغت تأريخه، وقضت عليه لاحقا، وياسر عرفات (ت: 2004م) عندما كان رمزا نضاليا، قبل أن تقضي على تأريخه كامب ديفيد، ثم أوصلو الأولى والثانية، وصدّام حسين (ت: 2006م)، رغم الجراحات التي أشعلها مع جارتيه إيران والكويت، مع وجود رموز سياسية أخرى أيضا لها تأثيرها كالمملك الحسين بن طلال (ت: 1999م)، ولكن لم يأت بعد جمال عبد الناصر من وحد القضية الفلسطينية، وعشقته الجماهير العربية والإسلامية، إلا أنه ذاته أدخل مصر وجيشها في صراعات خارجية كاليمين، وفي صراع داخلي مع الإخوان المسلمين، ممّا كانت نكسة حزيران 1967م، والتي كانت أكبر نكسة بعد نكسة 1948م.

لهذا يمكن أن نقرأ تطوّر هذه القضية وتجاذبها بين الحكومات والنخب بأنواعها من جهة، وبين الحكومات والجماهير من جهة ثانية، ابتداء من المرحلة المحذّرة من قيام كيان في المنطقة غير الكيان العربي قبل 1948م، حينها العديد من الأقسام السياسية والدينية والثقافية التي أدركت ما سيكون ويؤول إليه الأمر، لكن هناك من برّره نخبويًا أيضا، وحاول حاتم علي (ت: 2020م) أن يختصر هذا المشهد الفلسطيني والعربي قبل نكسة 1948م في إخراجة للمسلسل السوري الشهير "التغريبة الفلسطينية".

ثمّ نأتي إلى المرحلة شبه الموحدة بعد نكبة 1948م، وفيها كان التطوّع النضالي، وشارك فيها متطوعون من العالم العربي والإسلامي، ولم توجد حينها شعارات تفرقهم، فقد شارك فيها رمزيات إسلامية ومسيحية ودرزية، واتجاهات إسلامية ويسارية، بيد أنّ واقع العالم العربي والإسلامي حينها مفرقا وضعيفا جدّا بسبب سقوط الدولة العثمانية من جهة، وبسبب التمدد الأوروبي والاستعماري في المنطقة، من قبل الإنجليز والفرنسيين والطلّيان خصوصا، وبسبب

الإفافة المتأخرة في العالم العربيّ على عالم تقدّمهم في التّهضة والتّسليح وتنظيم الجيوش، ثمّ كان هذا بعد الحرب العالميّة الثّانيّة والتي قوّت دول الحلفاء، وعلى رأسها بريطانيا على دول المحور، وكانت بريطانيا أكبر حليف ومناصر وداعم لهذا الكيان، قبل تسليم الأمر إلى أمريكا، وحينها بعد تراجع دول المحور أصبحت القوّة لهذا الثّلاثي التّحالف: بريطانيا وأمريكا وروسيا، قبل أن تتراجع بريطانيا عن المشهد.

وبظهور الحركات اليساريّة والقوميّة، ولم تفرقها حينها الطّائفيّة كما أسلفنا، وكانت التّزعة العروبيّة والقوميّة أكثر شيوعا، لهذا كان النّضال الموحد فكريّا وسياسيّا، ليظهر في هذه الأجواء جمال عبد النّاصر وانتصاراته في حرب السّويس 1956م، بيد أنّ نكسة حزيران 1967م أو ما تسمّى بالعداوان الثّلاثي على مصر أي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، أو نكسة حرب الأيام الستة أثرت سلبا على الوجدان العربيّ، فسقطت سيناء وقطاع غزة والضّفة الغربيّة والجولان، وقد شارك فيها العراق ومصر وسوريا والأردن، إلّا أنّ الرّوح العروبيّة والنّضاليّة رجعت بعد حرب أكتوبر أو حرب العاشر من رمضان 1973م في عهد أنور السّادات من قبل مصر وسوريا خصوصا، فهيمنت مصر على سيناء مطلقا، وقطاع غزّة عسكريّا، وسوريّة على الجولان، والأردن على الضّفة الغربيّة، وقد انفتح السّادات على الحركات الإسلاميّة، وأخرجها من السّجون، وأعطاهم مساحة من الحرّيّة.

لتأت إلى مرحلة التّنازل العربيّ، أي بعد كامب ديفيد 1978م، ثمّ معاهدة السّلام 1979م بين الثّلاثي السّادات ومناحيم بيغن (ت 1992م) وجيمي كارتر، وفيها إقامة سلام من خلال حلّ الدّولتين على حدود 1967م، هذه لقيت معارضة كبيرة دينيّا وسياسيّا وثقافيّا، وتعتبر أكبر شخ في الوسط العربيّ والنّضاليّ، وقد قوطعت مصر حينها من غالب الدّول العربيّة، بيد أنّ الدّول العربيّة جميعا لاحقا ستتبني هذه الرّؤية، خصوصا في بيانات جامعة الدّول العربيّة المتكرّرة، إلّا أنّ غالب الرّأي الدينيّ والثّقافيّ كان معارضا لهذه الرّؤية، ممّا أثر في الجماهير.

في هذه الأجواء بدأت التّيّارات الإسلاميّة تنشط بشكل كبير، وكانت مركزها الخليج العربيّ، حيث هاجر رموزها بسبب الاضطهاد إلى منطقة الخليج، فتزاوجت مع التّيّار السّلفيّ، وظهر تشكيلات جديدة لها كالسّوريّة والقطيبيّة والصّحويّة، وفي المقابل انتصار الثّورة الإسلاميّة

في إيران بقيادة الإمام الخميني (ت: 1989م) أحدث حراكا سياسيا دينيا في الوسط الشيعي، بيد أن الصّحوة الدينيّة – خصوصا السنيّة – استخدمت سياسيا في مواجهة الاتحاد السوفييتي، فنشأت الحركات الإسلاميّة الجهاديّة كالقاعدة، وكان ما يشغلها التّحرّر من الأمريكان في الجزء الأفغانيّ خصوصا، بينما إيران أشغلت بحرب مع العراق لثمان سنوات، إلّا أنّها استطاعت أن تكوّن أحزابا سياسيّة مسلحة لها في الخارج، وعلى رأسها اليوم حزب الله في لبنان، الحزب الأكبر الذي سيتكوّن في المنطقة، ويكون له تأثيره السياسيّ فيها، مع تراجع الأحزاب اليساريّة والقوميّة بشكل كبير.

في هذه الأجواء على المستوى الحكوميّ العربيّ المتفرق، وبسبب إشغال الشعوب العربيّة والإسلاميّة بحروب خارجيّة مع السوفييت، والطائفية التي بدأت تتسع داخل الخطابات الإسلاميّة؛ كانت الأوضاع مهيأة غربيّا لاستمرار مرحلة التنازل حول القضية الفلسطينية، فكانت معاهدة أوسلو عام 1993م بين عرفات وبيريز (ت: 2016م) و克林تون، فاعترفت فتح بدولة إسرائيل، بينما إسرائيل لم تعترف بدولة فلسطين، وإنّما اعتبرتها منظمة لا أكثر، ثمّ كانت أوسلو الثانية 1995م بين الثلاثة أيضا، وبمشاركة روسيا، ومصر، والأردن والتّرويج والاتحاد الأوروبيّ، وفيها قسّمت المناطق الفلسطينيّة إلى (أ) و (ب) و (ج)، وهو أكبر ظلم، حيث لم يكن للسلطة الفلسطينيّة سيطرة إلا بنسبة ثلاثة بالمائة فقط على الضّفة الغربيّة أمنيا وإداريا عدا القدس، وهو (أ)، وإداريا فقط لا أمنيا بنسبة خمس وعشرين بالمائة على مناطق أخرى وهي (ب)، وباقي المناطق تحت السيطرة الإسرائيليّة أمنيا وإداريا ليتمكنها في التّوسع في بناء المستوطنات وهي (ج) كما أسلفت سلفا.

ورغم تنامي الخطابات الإسلاميّة مع الخطابات اليساريّة والقوميّة والتي كهلت أحزابها، والرّافضة لفكرة دولة إسرائيل أصلا، وزادها الأمر اجتياح لبنان 1982م وغيرها من المجازر الإسرائيليّة، في هذه الأجواء برز خطاب الإخوان المسلمون، فنشأت حماس قبل كامب ديفيد من قبل أحمد ياسين (ت: 2004م) باسم المركز الإسلاميّ وهي عبارة عن جمعيّة خيريّة، وفي عام 1987م تحوّلت إلى حركة لا تعترف بدولة إسرائيل مع قبولها لهدنة حلّ الدّولتين بشروطها، وحماس نشأت من رحم الإخوان المسلمين، وفازت عام 2006م بالسلطة التّشريعيّة الثانية ثمّ انقلب عليها.

هنا بدأت الجماهير لطبيعتها في البحث عن رموز خلاصية، تعنى بالجانب العاطفي، لما تحمله هذه القضية من كوامن وجدانية ونضالية، ونتيجة للمجاز المتكررة من قبل الاحتلال الإسرائيلي، فكانت من أهم الرموز حينها أحمد يس، وعبد العزيز الرنتيسي (ت: 2004م).

وبعد 2011م، ومحاربة العديد من الأنظمة الدولية والعربية للإسلام السياسي، كما حوربت من قبل الحركات اليسارية والقومية بذات اللباس، حيث صنفت حماس من قبل بعض الحكومات كمنظمة إرهابية، كما صنفت حركة الإخوان المسلمون بذلك، بينما كان الوجدان العربي والإسلامي عموما مع الإنسان الفلسطيني.

بيد أن الجانب الحكومي اليوم ينقسم إلى قسمين أساسيين: القسم القائل بحلّ الدولتين على حدود 1976م، وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية، غير منزوعة السلاح، مع رفض التطبيع قبل تحقق ذلك، والقسم القائل بحلّ الدولتين على حدود 1976م مع الموافقة على التطبيع بدرجات.

أما الرأي النخبوي وإن كان في جملته مع القضية الفلسطينية، إلا أن هناك من أصبح يميل إلى الرأين في الجانب الحكومي بتفاوت بينهما، كما أن بعض الآراء الإسلامية واليسارية كانت رؤيتها تحت منطلق الهدنة، مع ظهور التيارات الجامية الإسلامية والثقافية الواقفة والمبررة لرأي حكوماتها.

إلا أن حادثة 7 أكتوبر اليوم غيرت المعادلة جماهيريا، وأرجعت القضية الفلسطينية عموما إلى النقطة الأولى، فهذا الجيل أصبح مدركا لحقيقة القضية، وأن مدارها الحق والباطل، وأن الظلم الذي حاول العالم إخفاؤه وإلهاء الناس عنه؛ أصبح ظاهرا مكشوبا اليوم، لتظهر رمزية نضالية (أبو عبيدة)، رغم أنه مجهول اسمه وتأريخه، بل ومعرفة شكل وجهه، إلا أنه أصبح رمزية نضالية، ماثله في الجانب الشيعي حسن نصر الله (ت: 2025م).

أين المثقف العربيّ من الواقع الفلسطينيّ؟

إذا عذرنا الجامعة العربيّة في ضعف وحدتها السّياسيّة؛ لأنّه لم يعد هناك وحدة جامعة بينها، فقد كانت القوميّة العربيّة شعارا جامعا بينها، على الأقلّ كان دافعا معنويًا قويًا لها، فحورب هذا الدّافع بما يسمّى الصّحوة الإسلاميّة، هذه الصّحوة أدخلت الواقع العربيّ في صراعات لاهوتيّة وكأننا في العصر العباسيّ ولسنا في العصر الحديث، ومنهم من اعتبر الدّعوة إلى القوميّة العربيّة كفرا وزندقة وبعثا لدين جديد، فكان الأمل في جمعيات وأسر الكتّاب العرب، وهي جمعيات عموميّة مستقلّة، كانت تحت اتّحاد واحد، هذا الاتّحاد لم يكن أفضل من الجامعة العربيّة بسبب تسييس بعض مواقعه، ليصبح لسان السّلطة وليس المجتمع المدنيّ، هو ذاته تشرذم إلى موقعين بسبب حرب اليمن خصوصا، ثمّ لم يعد له وجود يذكر منذ 2022م وحتىّ اليوم.

في واقعنا العربيّ خطّان من الثّقافة في الجملة، خطّ المؤسّسات الثّقافيّة التي في ظاهرها خدمة المعرفة، وفي باطنها تسييس لمن يدفع لها، لتبرّر فعله اليوم، وتؤيّد فعله غدا، وخطّ المثقف الفرد المستقلّ بذاته، وهؤلاء ثلاثة، فريق يبرّر لأخطاء السّياسات لكونه منتميا إلى قطرها، أو مستفيدا من غلاتها، أو مهّددا من قبل أجهزتها الاستخباريّة، وهؤلاء يعيشون التّناقض بين مبادئ الثّقافة الجامعة والتّهضويّة، وبين تبريرات طيش السّياسيين، وتارة ينقضون في نهارهم ما نشره في ليلهم؛ لأنّ المدار هي حركة السّياسيّ وليس المبادئ والقيم الإنسانيّة الثّابتة، وفريق آخر من المثقفين مال إلى السّكوت والانزواء، والاشتغال بذاته بعيدا عن الصّخب، حتّى لا يلوّث قلمه، ولا يستغلّ فكره ولسانه، وبقي فريق ثالث يتحدّث باسم قيم الإنسان الجامعة، غير مرهون بسياسات قطره المنتمي إليه أو غيره، إن أحسنوا كان داعما، وإن أساءوا كان راصدا ناقدًا، وهؤلاء أقلّ الكفتين.

إنّ ما يحدث في واقعنا العربيّ الرّاهن يحتاج إلى أقلام تؤمن بالإنسان العربيّ كفرد مستقلّ بذاته، له كرامته الإنسانيّة في تحقيق المساواة والعدالة، ثمّ توسيع مساحة حريّة الرّأي، ومواجهة الاستبداد، ومواجهة ما يؤدّي إلى تكميم الأفواه، وشراء الأقلام، وتوجيهها لغايات السّياسيين، وليس لقيم الإنسان الكبرى، ثمّ لا بدّ أن يكون المثقف مشاركا في الوضع

السّياسيّ، بمعنى أن يكون له دورا فاعلا إذا انطلق من إنسانيّة الإنسان، وليس من عسكرة السّياسة، أو أدلجتها دينيّا، أو لإشباع رغبات البعض في التّوسّع الموهوم، أو أكل خيرات شعوب أخرى، أو بناء عظمة ساذجة مقابل خراب ديار أمم آمنة، حينها إن ترك المثقف دوره الحقيقي؛ سيملاً السّاحة غيره ليقودها إلى الدّمار كما في واقعنا اليوم.

لماذا استقرت أوروبا وانتقل الصراع إلى الوطن العربي؟

استطاعت أوروبا - في جملتها - بعد الحرب العالمية الثانية أن تفرض لمحيطها استقراراً طال عهده؛ لا لأنّ السّياسيّ أراد ذلك، لكن بسبب أنّ المثقف فرض كلمته، وانفصل رأيه عن (صبيانيتها) تصرّف بعض السّياسيين، من إشعال الحروب، وغزو المجتمعات، فهناك رأي ثقافيّ واضح له تأثيره على العقل الجمعيّ، ممّا يؤثّر الأخير على أصحاب القرار، فتجربة هتلر لا زالت حاضرة في الذاكرة الجمعيّة الأوروبيّة عموماً، والألمانيّة خصوصاً.

مثلاً في 14 أيلول (سبتمبر) 1952م نشر الكاتب العمانيّ حسين حيدر درويش (ت: 1999م) في جريدة الأهالي العراقيّة مقالة بعنوان: "الوضع السّياسيّ في أوروبا الغربيّة"، ذكر فيها: "إنّ الشّعوب الأوروبيّة قد ذاقت الكثير من مرارة الحرب، فأشباح الحرب الماضية لا زالت ماثلة أمامها، عالقة في أذهانها، فهي لا تكره شيئاً بقدر ما تكره الحروب، وغايتها دائماً أن تتجنّب الحرب مهما كلّفها الأمر، إنّ معظم طبقات الشّعوب لا تحابي أيّ معسكر من المعسكرين، فهي تنادي بالحياد والابتعاد عن الانتماء إلى أيّة كتلة دوليّة" تدعو إلى إشعال الحروب.

وهذا لا يتأتى إذا انعزل المثقف بشكل خاصّ، والمجتمع بشكل عام عن السّياق السّياسيّ، وإلا سيتركز الحدث ذاته، لهذا عملت هذه الشّعوب على تمكين حرّيّة الرّأي، والمشاركة في القرار السّياسيّ، "إنّ الشّعوب الأوروبيّة قد نشأت على حبّ حرّيّة الرّأي، فهي تفصح وتعبّر عن رأيها مهما كان مخالفاً لسياسة حكوماتها، أو مناقضاً للمعاهدات التي تبرمها، والزائر للأقطار الأوروبيّة يستطيع الوقوف على آراء شعوبها واتّجاهاتها بالاختلاط بها، والتحدّث مع أفرادها على اختلاف مهنتهم وطبقاتهم".

اللافت في هذه المقالة ما ختم به الكاتب مقالته: "وقد صارحني الكثير من شعوب تلك الأقطار بأنّ الولايات المتحدة بعد أن بدأ الشك يساورها في تحقيق غايتها في أوروبا الغربيّة بدأت الآن تتجه نحو الشّرق الأوسط لاعتقادها بأنّ شعوب تلك الأقطار وعلى رأسها الشّعوب العربيّة لا زالت في سبات عميق، ومن السّهل إقناعها أو بالأحرى خداعها لتجعل من أراضيها ميداناً للمعركة القادمة، وتجلب إليها الموت والدّم، لتجنّب بذلك أراضيها تلك الكوارث والويلات، إنّ على الشّعوب العربيّة وحدها أن تقرّر مصيرها في هذه الآونة الدّقيقة، فإمّا أن تنقذ نفسها من

ذلك الشبح المخيف الذي بدأ يقترب منها، وأما أن ترضخ للإرادة الأمريكية فتستعدّ للقنابل الملتهبة والنار المشتعلة والخراب والدمار، وغير ذلك ممّا تجرّه الحرب وراءها من ويلات وكوارث".

ونحن اليوم بعد ثلاث وسبعين عاما من نشر هذه المقالة هل "صدّق الخبر الخبر"، ومع أنّ الدّول العربيّة عموما في ظاهرها استقلّت عن الاستعمار، لكننا اليوم نخرب واقعنا بأيدينا، فما أن يسكن قطر من أقطارها إلا وتشتعل الحرب في أقطار أخرى، إمّا من داخلها، أو من أبناء عربيتها، حتّى أصبح عالمنا العربيّ اليوم من أسوأ العوالم، وساحة حرب يعبث فيها، وتُجرّب الأسلحة الحديثة في ديارها.